اقرأ

د. محمد المنسى قنديل

اء فى طفولتهم

دار المعارف

اقرأ

[٥٦٢]

عظماء في طفولتهم

د. محمد المنسي قنديل

عظماء في طفولتهم

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الإستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

يقول العرب: الطفل أبو الرجل

ويعنى هذا أنه فى داخل كل طفل منا توجد ملامح الرجل الذى سيكونه فى المستقبل. ويعنى هذا أيضًا أن أحداث الطفولة هى التى تحدد جزءًا كبيرًا من شخصياتنا واتجاهاتنا.. وهذه قصص من طفولة بعض العظماء.. علماء.. وقادة وأدباء.. كانت طفولتهم هى البداية الأولى على طريق النبوغ.

عمرو بن الجاحظ
البخلاء لا يتركون شيئًا

وضع عمرو طعامه على شاطئ النهر فى المكان الذى يحبه. وجلس حتى يأكل. كان يحلو له الاستمتاع بالأكل وهو يحس بالهواء المنعش خاصة فى الأيام الحارة التى تمر على مدينة «البصرة» كان الطعام جيدًا فقد اشتغل عمرو طوال اليوم فى سوق الوراقين ينسخ الكتب ويصححها حتى قبض الكثير من الدراهم. انفقها كلها من أجل أن يحضر هذا الطعام وأن يجلس بجانب النهر هذه الجلسة ليريح جسده من تعب اليوم كله.

ولكن ما أن (بسمل) عمرو وحاول أن يضع أول لقمة فى فمه حتى توقف أمامه شيخ كبير السن وهو يقول فى شفقة:

- يا للفتى المسكين.. هكذا تجلس وحيدًا وتتناول طعامك دون أن يؤنسك أحد.. ورفع عمرو وجهه.. كان الشيخ مهيبًا تبدو عليه أمارات الاحترام.. وقال عمرو فى تأدب:

- تفضل معى.

وبسرعة شديدة قفز الشيخ وأصبح جالسًا فى مواجهة عمرو والطعام بينهما. وقال وهو يمصمص شفتيه:

- صعبت عليّ يا مسكين. أنا مشفق عليك لأنك وحيد هكذا.. تخيل أنك وأنت تأكل وقفت قطعة من الطعـام في حلقك.. هيـه.. ماذا كنت ستفعل.. من الذى ينقذك ؟.

وبلع عمرو ريقه عندما تخيل أن الطعام يمكن أن يخنقه وقال مبررًا وحدته :

- إنني.. إنني لا أتناول غير لقيمات صغيرة أمضغها مضغًا جيدًا..

وهتف الشيخ : خطأ.. أكبر خطأ.. فالإنسان لا يجب أن يضيع وقتًا طويلا في الأكل.. ويجب عليه أن يكبر اللقمة حتى يستمتع بطعامه.. هكذا.

وقبض الرجل على لقمة كبيرة من الطعام وقطعة أكبر من اللحم ودسهما في فمه ليؤكد صحة كلامه.. وفي ثانية غاب كل شيء داخل جوفه.

وأحس عمرو بالفزع. ولكن الشيخ توقف عن الأكل.. كأنه فقط كان يريد بهذه التجربة أن يوضح كلماته.. وسأل عمرو باهتمام وبشفقة :

- ماذا تفعل يا بني ؟..

قال عمرو: إنني أقوم بكل الأعمال تقريبًا.. ولكني اليوم كنت أعمل ناسخًا في سوق الوراقين..

قال الأعرابي: آه.. هذا هو إذن سبب جحوظ عينيك.. كنت أعتقد أنهما جاحظتان لأنني.. لأنني فقط تذوقت القليل من طعامك.

وأحس عمرو بالخجل من نفسه فهتف يقول للأعرابي :

- كلا.. كلا يا سيدي.. أقسم لك أنني سعيد بجلوسك معي.. ولكن الأعرابي قال في جدية :

- دعني أتأكد.

ومد يده فى حركة سريعة ونزع لقمة أكبر من الأولى وقطعة لحم أكبر دسهما فى فمه.. ولم تمض ثانية حتى انزلق كل شىء داخل جوفه.. وربت لأعرابى على بطنه وهو يقول:

— لقد ظلمتك يا فتى.. إن جحوظ عينيك ليست له أى صلة بى.. لآن فقط قد تأكدت..

وحسب عمرو أن هذه سوف تكون اللقمة الأخيرة.. ولكنه ظل توجسًا من الهجوم التالى للشيخ على الطعام.. وقال الشيخ وهو يحرك سانه داخل فمه:

— من أين اشتريت هذا الخبز واللحم؟.

قال عمرو فى تردد وقد أدرك أن الشيخ يقوده إلى فخ جديد:

— من الحاتى الموجود فى أول السوق.

قال الشيخ فى ثقة: كلا.. كلا.. أنا متأكد من طعم اللحم.. إنه من لحاتى الموجود بجانب النهر.

وقال عمرو لينهى الموضوع: على أى حال.. فكل اللحم متشابه.

ولكن الشيخ قال فى تصميم: كلا.. كل واحد وله مذاقه الخاص.. وأنا فرق جيدًا بين الأنواع المختلفة.. يجب أن أتأكد بنفسى.

وقطع نصف الرغيف فى مرة واحدة. ووضع فيه قطعتين من اللحم.. دس هذه الكتلة الضخمة فى سهولة داخل فمه الواسع وحرك شدقيه ليلا فانزلقت وغابت ولم يبد عليه أنه إلتهم أى شىء. ولكنه رفع أصبعه وكدًا للفتى:

— أنت على حق يا فتى.. إنها فعلا من الحاتى الموجود فى السوق..

وتمنى عمرو أن تكون هذه هي اللقمة الأخيرة فلم يعد باقيًا من الأكل إلا القليل جدًا وما زال النهار طويلا أمام عمرو. وسكت الرجل قليلا ولكن قبل أن يتناول عمرو أي لقمة هتف به الشيخ:

– ولكن لماذا تقطب وجهك هكذا؟.

أرجع عمرو اللقمة التي كانت في يده وهتف في دهشة:

– أقطب وجهي؟

قال الشيخ في تأكيد: أجل.. هل أنت حزين لأنني جالستك؟

قال عمرو: إطلاقًا.. لست حزينًا لقد ولدت ووجهي هكذا.

قال الأعرابي: هل أنت غير راض لأنني تذوقت القليل من طعامك.

قال عمرو: بالعكس.. أنا سعيد جدًّا.. وهأنا ذا أبتسم..

وحاول عمرو أن يبتسم ابتسامة كبيرة لعله ينقذ من الطعام ما يمكن إنقاذه.. الشيخ لم يبال بهذه الابتسامة الساطعة وهتف:

– دعني أتأكد..

وقبض على الطعام قبضة كبيرة جعلت عمرو يصرخ من الألم. وهتف الرجل وفمه ممتلئ بالطعام وهو يشير إلى عمرو كمن ضبطه متلبسًا:

– أرأيت.. أرأيت.. أنت متألم لأنني تذوقت طعامك.

وقال عمرو وهو يكاد يبكي: أنت لم تتذوقه.. لقد التهمته كله.

وبلع الرجل الطعام وأصبح فمه فارغًا وقال لعمرو في تأكيد:

– لقد خدمتك. صدقني. لو تناولت هذا الطعام فسوف يصاب جسدك بالسمنة.

ويصاب عقلك بالبلادة. صدقني. أنت ما تزال فتى صغيرًا ويجب أن تبقى نشيطًا هكذا.

ولكن عمرو كان يشعر بالحزن الشديد فهتف:

– ولكنك التهمت طعام يومي كله.. وسوف أتضور جوعًا بقية اليوم.

وقال الأعرابي: وماذا في ذلك. إنها صحة. ولا تنسى.. لا تنسى يا فتى أنك أنت الذي طلبت مني أن أشاركك الطعام.

قال عمرو: كانت مجاملة.

قال الأعرابي: ولقد جاملتك. وعطلت نفسي لكي أجلس معك وأؤانسك فيكون هذا جزائي تتهمني بالتهام طعامك وأنا لم أتناول إلا بضع لقيمات فقط للتأكد من كلامك. ونهض الشيخ واقفًا. غاضبًا كأن عمرو هو الذي أخطأ في حقه ولوح بيده وهو يقول: ماذا أفعل الآن. لقد أفسدت على غذائي.. لقد تأخرت بسببك والله.

وانصرف الرجل غاضبًا. وترك عمرو حزينًا أمام بقايا الطعام الذي كان. لقد كبر عمرو. ونسى الناس اسمه الحقيقي.. «عمرو بن بحر» ولم يتذكروا إلا عينيه الجاحظتين فأطلقوا عليه اسم «الجاحظ» وعرف به حتى يومنا هذا. ولم ينس عمرو هذا الشيخ الذي أكل طعامه. لم ينس هذا الصنف من الناس الذي يفرض نفسه على الآخرين فيأكلون طعامهم ويسلبونهم مالهم في حين يبخلون بهذه الأشياء حتى على أنفسهم.. وأخذ يتتبع أخبارهم. ويعرف نوادرهم. وكتب عنهم أشهر كتبه.. بل أشهر كتاب في اللغة العربية وهو كتاب «البخلاء». لقد لفتت هذه الحادثة نظر الجاحظ إلى الطبائع البشرية.. والصفات المختلفة بما فيها من كرم وبخل

وشجاعة وخوف.. وكتب غير «البخلاء» كتبًا كثيرة مثل «البيان والتبيين» و «التربيع والتدوير» و «الحيوان» وظل بقلمه البارع. ولسانه اللاذع يطارد هذه الصفات السيئة لكي يحرر المجتمع من أمثال هؤلاء المتطفلين والبخلاء والمنافقين.

الحسن بن الهيثم
الرحلة إلى عالم الضوء

زحام شديد فى جامع المنصور. من المؤكد أن كل علماء بغداد قد اجتمعوا فى هذا المكان. حاول «الحسن» أن ينفذ بينهم ولكن جسده الصغير لم يساعده وهتف به أحد الرجال المتزاحمين:

– ماذا تفعل هنا يا غلام؟

قال «الحسن»: أريد أن أرى الشيخ الرئيس.. أريد أن أرى «ابن سينا».

قال الرجل فى استنكار: وما أدراك أنت «بابن سينا». اذهب والعب مع الغلمان.

ولكن «الحسن» لم يكن يريد أن يلعب. كان يريد أن يرى «ابن سينا» وأن يتحدث معه فى كل الموضوعات التى يحبها. فى الفلك والطب والهندسة. سوف يدهش «ابن سينا» حين يعرف أنه فى هذه السن الصغيرة ويعرف كل هذه العلوم الكبيرة. ولكن لو أنهم فقط يتيحون له الفرصة. إن «ابن سينا» فى زيارة سريعة لبغداد. وربما سافر دون أن يعود إليها مرة أخرى. وساعتها لن يراه «الحسن» أبدًا.

ولكن.. لا أمل، الزحام شديد. والناس يدفعونه بعيدًا. لم يكن هناك بد من السير فى شوارع بغداد الخالية. أحس «الحسن» فجأة أنه ما زال صغيرًا. لا يحس بوجوده علماء كبار أمثال «ابن سينا». عليه أن ينضج أكثر ويعرف أكثر.

سار فى الطريق إلى «بيت الحكمة». تلك المكتبة الضخمة التى أنشأها الخليفة «هارون الرشيد» ومن يومها وقد حرص الخلفاء والعلماء والأدباء على إضافة الكتب إليها من كل فروع المعرفة ومن كل بلاد العالم. على باب بيت الحكمة كان هناك اثنان من الموظفين أمامهما مجلد ضخم، على الزائر أن يكتب اسمه فيه. ولم يكن الغلام فى حاجة لأن يذكر اسمه فالجميع فى هذا البيت يعرفونه جيدًا من كثرة تردده.. «الحسن بن الهيثم».

وعندما دخل إلى قاعة المطالعة مال الرجل على زميله وقال له فى همس:

– هذا الغلام عجيب. لقد قرأ عشرات الكتب الصحية. قرأ كتب جالينوس فى الطب.

وبطليموس فى الفلك. وإقليدس فى الرياضة.

كانت قاعة المطالعة خالية. وفكر «الحسن» فى حزن: طبعًا لأن الجميع ذهبوا لرؤية الشيخ الرئيس. وفكر أيضًا أنه سوف يرى «ابن سينا» على طريقته الخاصة. سار إلى أحد الأركان وأخذ مجلد (كتاب الشفاء) الذى كتبه «ابن سينا» وقال عنه الجميع إنه أعظم كتاب وضع فى الطب وبدأ «الحسن» يقرأ.

كان السكون شاملا. (وكتاب الشفاء) يستولى على كل حواس

«الحسن». لم يتصور أن هناك رجلا عنده كل هذا القدر من المعارف والمعلومات. كان الشيخ الرئيس يتحدث فى كل شىء فى الطب والتاريخ والفلك والجغرافيا. أى ذهن هذا الذى عرف تفاصيل هذه الأشياء والعلاقة التى تربط بينها. كان السكون شاملا. لا صوت غير صوت الصفحات التى يقلبها الغلام. كانت أوامر الخليفة مشددة منذ أن أنشأ «بيت الحكمة».. ألَّا يُصدَّ عنه أحد. وألَّا يؤمر أحد بالانصراف وأن يبقى البيت مفتوحًا ما دام هناك من يقرأ حتى ولو كان فردًا واحدًا.

شعر «الحسن» بالتعب. تداخلت الكلمات والسطور أمام عينيه. بدأ رأسه يميل رغمًا عنه وجبهته تكاد تلمس الكتاب. بدأ الظلام يتسرب من حوله. وأحس كأنه يسافر إلى عالم آخر. كأنه يطير. يسبح فى فضاءات واسعة. يركب أحد السحب. والسماء صافية. والأرض داكنة. والسحابة بيضاء هشة.. تقول له:

– تماسك قليلا «يا بن الهيثم» فهذا وقت المطر.

وبدأت ترش العالم بقطرات رقيقة. كأن الأرض الخضراء تنتفض بالنشوة. والسماء تتألق بالألوان. وامتد قوس قزح من حافة الأفق حتى حافة الأفق.. وصفق «الحسن» فى نشوة.. ليتنى أركب فوق قوس قزح. واقتربت السحابة ووضعت «الحسن» على قمة القوس فأخذ ينزلق عليه بنعومة. كانت الألوان الصافية تحيط به.. تلون يديه وثيابه.. حمراء خضراء صفراء.. وفى نهاية القوس كان هنا شيخ بانتظاره. لم يكن «الحسن» قد رآه من قبل ولكنه عرفه على الفور.. إنه الرئيس «ابن سينا».. كان يبتسم له قائلا:

– هل جئت أخيرًا يا صديقى الصغير.. إن الجميع فى انتظارك..

وأمسك يده وسارا معًا. كانا يسيران على أرض كـأنها بلّور. تتألق تحتها عشرات الأضواء. حيوانات صغيرة ملونة. أشجار وزهور وسهوب. ثم مثلثات ودوائر ومربعات. خطوط مضيئة ومتداخلة مع بعضها. وحين لمسها «الحسن» كانت دافئة وبعثت داخله شيئًا من النشوة. كان هناك شيخ آخر يجلس على دائرة مضيئة وهو يمسك في يده جوالا كبيرًا يمد يده فيه ثم يخرج قبضته وينثر مـا بها في الهـواء.. كانت حـروف الهجاء اليونانية. تتناثر في الفضاء كـالنجوم الملونـة. وعرفـه «الحسن». أنه إقليدس عالم الرياضيات اليونـانى الشهير. إبتسم الشيـخ وألقى عليه قبضة من الحروف وهو يقول:

– مرحبًا بك يا بنى.. لقد انتظرتـك طويـلا.. أنت الوحيـد الذى سيفهم كل نظرياتى الهندسية وسوف تضيف إليها الجديد.. ولكن عليك بمزيد من المعرفة.

وابتسم «الحسن» وسار مع الشيخ الرئيس. أكلا فاكهة حلوة. وشربا شرابًا مسكرًا ثم ركبا قاربًا في نهر من الماء وسط السحب. كان مليئًا بالسمك الملون الذى أخذ يتقافز أمامهما.. وعندما وصلا إلى نهاية النهر وتركا القارب اكتشف «الحسن» أنه يقف مع «ابن سينا» على حافـة الكون. يمتد أمامهما فراغ لا نهائى ملىء بالنجوم والأقمار. كان هنـاك شيخ ثالث قد ربط حبلا بين نجمتين على شكل أرجوحة وأخذ يتأرجح في الفراغ والصدى يردد ضحكاته وقال حين رأى «الحسن»:

– مرحبًا يا صديقى الصغـير. أنا بـطليموس.. أول فلكى يـونانى. ها هى النجوم ملك يديك كما كانتاملك يدى. ها هو كون الله الواسع في حاجة لمن يدرسه ويعرف نظامه.. عليك أن تعرف يا بنى من أين يأتى الضوء. وإلى أين يذهب.

لا حياة بدون ضوء.. ولا ضوء بلا حياة.

وأخذ يواصل التأرجح في سرور. وأحس «الحسن» أنه يطير. يرى أناسًا يلوحون له مرحبين.. أبو بكر الرازى.. والفارابي.. وابن حيان.. وجالينوس. وأرشميدس.. ما أكثر الناس الذين يحبونه. وتوقفا أمام باب كهف واسع مظلم وقال «ابن سينا» وهو يبتسم:

– والآن.. عليك أن تدخل وحدك. وعليك أن تأخذ قرارك وحدك أيضًا.

للمرة الأولى شعر «الحسن» بالخوف. لم يعرف من أين تصدر هذه الهمسات الغامضة داخل الكهف؟.. هل هناك طيور محبوسة. أم أشباح غامضة؟ كان الممر الصخرى يضيق من حوله. كأنه انشق فقط ليسمح له بالمرور إلى نهاية الكهف. حيث توجد نار مشتعلة. وامرأة تضحك. الكهف كله يرتج من صوت الضحكة.. تنظر إليه وتشير إليه أن يتقدم. أصابعها طويلة كالمخالب:

– تقدم «يابن الهيثم».. اقرأ طالعك واعرف مستقبلك. ماذا تختار.. المال أم المعرفة؟..

تردد «الحسن» قليلا ثم هتف.. المعرفة؟.

ضحكت المرأة وهى تقول: لقد أحسنت الاختيار. سوف تكون لك معرفة وعقل ألف رجل.. وسوف يكون لك من المال أقل من أى رجل.

وأخذ الكهف يرتجف تحت وقع ضحكاتها. وبدأ «الحسن» يرتجف.. يبتعد.. يذهب في الفضاء.. ثم رفع رأسه. كان مازال نائمًا على صفحات كتاب «الشفاء» وكان هناك من يربت على كتفه يوقظه برقة. كان هناك شيخ باسم يتطلع إليه وهو يقول:

- لا بأس عليك. لقد غلبك النوم فوق كتابي يا فتى. لقد سمعت عن نبوغك برغم سنك الصغير ولم أشأ أن أغادر بغداد دون أن أراك.. إنني أتوقع منك كل خير ولكن عليك بالمزيد من المعرفة.

كان هو الشيخ «الرئيس ابن سينا» بنفسه. حقيقة وليس حلمًا. تحققت أمنيته وأحس «الحسن» أنه قد نال أكثر مما تمنى.

لقد حقق «الحسن بن الهيثم» الكثير من هذا الحلم. أصبح واحدًا من أشهر العلماء العرب. اشتهر بنظريته عن الضوء وخصائصه وصحح كثيرًا من المفاهيم القديمة. وألف عشرات الكتب في الرياضة وفي علوم الفلك والطبيعة. واعترف الأوربيون أنه قد سبقهم في الكثير من نظرياته. وقد غادر «الحسن» بغداد إلى مصر. وسافر بطول النيل، ويقال إن حاكم مصر كان يريد أن يبني سدًّا عند أسوان وأراد أن يستعين بخبرة «ابن الهيثم» الهندسية. ولكن الإمكانات لم تتوفر في هذا الوقت.

وبرغم هذه المعارف فقد مات «ابن الهيثم» فقيرًا. قضى أيامه الأخيرة ينسخ الكتب عند باب الجامع الأزهر ويبيعها وكان ماله من الدنيا أقل من نصيب رجل.. أما علمه فقد كان يفوق علم ألف رجل.

أبو الريحان البيرونى
قياس المسافات البعيدة

قاعة العرش مزدحمة بكبار رجال الدولة. الوزراء. والقادة. والفقهاء. كانوا جميعًا ينتظرون العالم القادم الذى سوف يحل مشكلة السلطان. وكان السلطان «محمود الغزنوى» حاكم خوارزم وما حولها من أقاليم جالسًا على العرش متشوقًا لمعرفة هذا العالم. أما الوزير فقد كان على العكس من ذلك. كان متوترًا. فقد فشل فى حل مشكلة السلطان وكان حانقًا على كل من يحاول أن يحلها وصاح الحاجب الواقف على الباب:

– «أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى».

وأشار السلطان للحارس أن يدخله. ودخل «أبو الريحان» وهمهم كل الموجودين فى دهشة وهم يشاهدونه. لقد كان فتى صغيرًا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.. كان يقف فى منتصف القاعة وهو يمسك بيده لفافة من الورق.. ولم يتمالك الوزير نفسه فهتف فى غيظ:

– هذا غير معقول.. إنه مجرد طفل.

ونظر إليه السلطان نظرة حادة فبلع كلماته وصمت وقال السلطان:

– اقترب «يا أبا الريحان».

ولم يبال الغلام بهمهمات الدهشة.. واقترب من السلطان وانحنى أمامه فى أدب وواصل السلطان كلماته..

– لقد سمعت الكثير عنك من أستاذك ومعلمك «أبى النصر بن عراق». وهو يقول إنك أنبغ تلاميذه لأنك تجيد الرياضيات وعلوم الفلك ولك معرفة كبيرة بالجغرافيا والتاريخ والعديد من المعارف والعلوم.

وقال «أبوالريحان»: كل هذا بفضلك يا مولاى.. فأنت دائمًا تشجع العلم والعلماء. وتعالت هذه المرة همهمات الاستحسان تعبيرًا عن الرضا من حسن رد الفتى وقال السلطان:

– لابد وأن أستاذك أخبرك بالأمر الذى أريده. إننى أحكم مملكة كبيرة تمتد من حدود الهند حتى بلاد فارس. فيها عشرات القرى والمدن والبلدان ومع ذلك لا أعرف مساحتها ولا قياسها.. إننى أريد أن أعرف ما هو طول مملكتى.. وما هو عرضها.

وقبل أن يتكلم الفتى تقدم الوزير كان محتدًا جدًّا لأنه فشل فى هذه المهمة وعز عليه أن يكلف بها هذا الفتى الصغير. وقال:

– إنها مسألة شاقة يا مولاى. لقد استخدمنا عشرات الرجال والقياسين والكتبة.

ولكن الأرض مليئة بالجبال والأودية والأنهار وهذه كلها عوائق من الصعب اجتيازها وقياسها.. إننى أقسم أنه أمر مستحيل تمامًا يا مولاى.

واستمع السلطان فى صبر حتى انتهى الوزير الغاضب من كلماته ثم التفت إلى «البيرونى» وهو يقول:

– هيه.. ما رأيك فى كلمات الوزير «يا أبا الريحان»..

قال «البيرونى» فى هدوء: إن سيدى الوزير على حق يا مولاى.. إنها مهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة.

قال الوزير فى غيظ: كيف.. هه.. هيا.. قل لنا كيف؟.

ولم يتأثر «البيرونى» بمقاطعاته أو بلهجته وقال فى هدوء:

– لو استطعنا الاعتماد على الحسابات الهندسية وزوايا الظل لوفرنا كثيرًا من الجهد والمال وبذلك نستطيع الوصول إلى نتيجة أفضل للقياس.

وقال السلطان فى دهشة: الحسابات الهندسية.. زوايا الظل.. هل يمكن أن توضح لنا ما تريد قوله.

وفرد «البيرونى» لفافة الورق التى كان يحملها فى يده وهو يقول: هذه هى الحسابات يا مولاى. هذه هى نتائج التجربة التى قمت بها.. لقد انتظرت حتى أصبحت الشمس عمودية على مدينة غزنة.. عرفت ذلك من انعكاس أشعتها فى أحد الآبار.. ثم سافرت فى اليوم نفسه إلى مدينة شيراز وقست زوايا الشمس هناك أيضًا.. وباستخدام الحسابات الهندسية ومقدار الفرق بين زوايا الظل بين المدينتين استطعت أن أعرف المسافة بين المدينتين وهى كما ترى هناك.

وقدم الورقة للسلطان الذى أخذ يتأملها ويتتبع الخطوط المرسومة والأحرف المكتوبة بدقة.. وكانت المسافة مقدرة بالفراسخ.. ١٥٠ فرسخًا.. وقال السلطان فى دهشة:

– كل هذا عرفته من حسابات زوايا الشمس.

ولكن الوزير تقدم ثائرًا وهو يقول:

– مستحيل يا مولاى إن الشمس بعيدة عنا جدًا.. وهى دائمة التنقل

والغروب والشروق.. كيف نتأكد من صحة مثل هذه المسافات.

قال «البيروني» بالهدوء نفسه: إن الحسابات الدقيقة يمكن أن تصل بنا إلى أى نتيجة.. فبواسطة هذه الحسابات لا يمكن فقط التوصل إلى معرفة المسافة بين مدينتين.. ولكن من الممكن أيضًا قياس مساحة الكرة الأرضية كلها.

وهتف السلطان فى شوق لمعرفة مدى علم هذا العالم الصغير:

– وكيف كان ذلك «يا أبا الريحان».. هل عرفت مساحة الأرض كلها.

قال «البيرونى»: أجل يا مولاى. لقد ذهبت للهند فى زيارة مع أبى واستطعت الوصول إلى جبل عال جدًا يطل على سطح أملس مثل سطح البحر وقست ارتفاع الجبل باستخدام آلة تقيس زوايا الارتفاع.. ثم صعدت إلى قمة الجبل وقست زاوية انخفاض دائرة الأفق.. وبعملية حسابية بسيطة استطعت ايجاد نصف قطر الأرض ومنه استخرجت محيطها.

وقال السلطان محمود فى إعجاب: لو كان ذلك حقًا فأنت فتى مدهش.. هل يمكن إذن قياس كل مملكتى؟

قال «البيرونى»: بالطبع يا مولاى.. يمكن قياس المسافة بين كل المدن.. وعبر كل الحواجز والموانع الطبيعية ثم نجمع خطوط العرض.. وخطوط الطول ومنها تستخرج مساحة المملكة..

وهمهم الوزير فى غضب: ليس قبل أن نختبر الطريقة. لقد قلت إن

المسافة بين غزنه وشيراز مائة وخمسون فرسخًا.. حسنا.. سوف أرسل القياسين منذ الصباح الباكر لكي يقيسوا هذه المسافة شبرًا شبرًا.. وإذا كنت على حق سوف أكون أول المعترفين بدقة حساباتك..

ووافق الجميع بما فيهم «البيرونى» نفسه. فقد كان هذا هو الكلام المنطقى الوحيد الذى قاله الوزير. وانصرف الجميع. وفى صباح اليوم التالى تجمع القياسون.. وأوصاهم الوزير ألا يتركوا حجرًا إلا وقاسوا من حوله.. ولا نهرًا إلا وحسبوا سطح الماء واستغرقت الرحلة عشرة أيام كاملة، فقد كان الوزير يريد أن يكون دقيقًا إلى أقصى حد. ولما أتم ذلك دخل على السلطان الذى هتف به:

- هل فرغت من قياس المسافة بين غزنه وشيراز؟.

وأحنى الوزير رأسه وهو يقول: أجل يا مولاى.. قسناها بكل دقة.

قال السلطان فى لهفة: وكم كانت المسافة؟..

قال الوزير معترفًا: مائة وخمسون فرسخًا كما قال «البيرونى» يا مولاى.

ونهض السلطان من فوق العرش وهو يفرك يديه فى سرور:

- كنت أعرف مدى نبوغ هذا الفتى.. سوف نطبق طريقته فى قياس كل أطراف المملكة.. وسوف أتكفل أنا بتعليم هذا الفتى وتثقيفه حتى يصبح أعظم علماء عصره.. إن سلطانًا مثلى لا يجد عالمًا «كالبيرونى» كل يوم.

كان السلطان الغزنوى على حق فقد كان «البيرونى» نابغة زمانه. وبرع فى علوم الهندسة والفلك وكتب فى المقاييس والموازين.. بل وكتب

أيضًا فى الفلسفة والتاريخ.. وكتب أكثر من ١٨٠ مؤلفًا جمع فيها كل العلوم والنظريات وصحح العديد من النظريات الخاطئة عن الكون الذى نعيش فيه وترجمت كتبه إلى كل لغات العالم.. وكان يؤمن دائمًا بضرورة المشاهدة والرصد والتتبع وإجراء التجارب.. وهذه كلها أساسيات العلم الحديث الذى نعيشه اليوم.

صلاح الدين الأيوبى
لن أحنى رأسى أبدًا

كان «يوسف» يسير فى مؤخرة القافلة المتجهة إلى حلب. كان فى الحادية عشرة من عمره، لذلك فقد خرج فى صحبته أحد الخدم ليقوده عبر هذه الرحلة الطويلة من مدينة «تكريت» فى العراق إلى حلب فى الشام.

وفجأة لاحظ «يوسف» أن القافلة تسير بحذر شديد. فقد سكت «الحادى» عن الغناء ووضع الرجال الكمامات الجلدية على أفواه الجمال. ونزل الفرسان من فوق الخيول. وساروا ببطء. وقال «يوسف» للخادم فى دهشة:

— ماذا حدث؟

همس الخادم: إننا فى أخطر مراحل الطريق. انظر إلى هذه الكثبان الرملية. إن قطاع الطرق قد يختبئون وراءها.. وقد يهاجموننا فى أى وقت.

وصمت «يوسف». وبدأ يتطلع هو أيضًا حوله فى خوف. كانت

الهضاب الرملية صامتة أيضا. كان هناك جو من الرعب يسود كل شيء.
وهمس «يوسف»:
- كنت أحسب أن خالى «أسد الدين شيركوه» قد قضى على قطاع الطرق.
قال الخادم: خالك قائد شجاع. بل هو أفضل قواد السلطان «نورالدين» سلطان الشام.. ولكنه مشغول بمحاربة الإفرنج الذين يحتلون بقعة كبيرة من فلسطين والشام.. لذا فالحرب بينهم لا تهدأ أبدًا.
وظلت القافلة تسير بالهدوء نفسه. لم يبق إلا عدة تلال رملية ويزول الخطر. وهمس «يوسف»:
- سوف أطلب من خالى أن يجعلنى جنديًا.. سوف أحارب الإفرنج وقطاع الطرق معًا. لابد أن يحس الناس بالأمان سواء كانوا داخل المدن أو خارجها.. وفجأة صرخ صوت من فوق التلال.. كانت لكنته غريبة:
- توقفوا جميعًا.
وهمس الجميع فى خوف.. قطاع الطرق.. قطاع الطرق..
ولكن خرجت من خلف التلال عشرات من الفرسان المسلحين.. وقفوا جميعًا فى طريق القافلة وهم يشهرون سيوفهم ورماحهم.. وأخذ قائدهم يواصل الصياح.. وهمس الخادم فى خوف:
- إنهم ليسوا قطاع الطرق.. أنهم الإفرنج وهم أسوأ من قطاع الطرق.
كانت وجوههم حمراء. وشعورهم ولحاهم شقراء. وكانوا يرتدون ملابس بيضاء مرسوم عليها الصليب بلون أحمر قرمزى.. وهتف رئيسهم بلغة عربية متكسرة:

– قفوا جميعًا. أنتم فى أرض صليبية وعليكم أن تدفعوا الجزية وسوف نصادر نصف بضاعة القافلة.

وتقدم رئيس القافلة، وقف أمام القائد وهو يقول:

– إننا فى أرض السلطان «نور الدين».. وعليكم أن تدفعوا الجزية.

وضحك القائد ساخرًا وهو يقول:

– مادامت هذه أرض السلطان.. فدع السلطان يحميك.

ورفع سيفه فى حركة غادرة ثم هوى به على كتف شيخ القافلة.. وانقض الشيخ من الألم وهو يهوى على الأرض جريحًا.. نازف الدماء.. وتعالت صيحات الاحتجاج.. وحاول بعض رجال القافلة التقدم فى اتجاه الفرسان.. ولكنهم جميعًا رفعوا الرماح، وضعوها فى مواجهة صدور الناس. كان من الصعب على قافلة مسالمة أن تقاوم مثل هؤلاء المسلمين. وعاد قائدهم يصيح:

– سوف نصادر البضاعة كلها. ومن يقاوم سوف نقتله دون تردد.. وعلى كل واحد أن يدفع عشرة دنانير كاملة.. سوف نصنع لكم بوابة مصنوعة من الرماح يمر منها كل واحد منكم ورأسه محنية إلى أسفل.. وتدفعون الدنانير.

وقال «يوسف» فى حنق: إنهم فعلا أسوأ من قطاع الطرق.. فهم لا يسرقوننا فقط.. ولكن يحاولون إذلالنا..

وهمس الخادم فى خوف: اسكت يا سيدى «يوسف».. إنهم لا يرحمون.

كان الإفرنج بالفعل يريدون إذلال أناس القافلة. يريدون أن يؤكدوا

سيطرتهم على هذه الأرض وعلى ناسها. غرسوا رمحين فى الرمال. ثم ربطوا الرمح الثالث بينهما بالعرض وكان على كل واحد أن يمر من تحته. وأن يحنى رأسه ويقوس جسده كأنه يقدم آيات الخشوع لفرسان الصليب، أو بالأحرى الذين يتسترون تحت الصليب ويجعلون منه شعارًا لاغتصاب أرض الآخرين.

كان «يوسف» يشعر بالغيظ ويتخيل وجه خاله «أسد الدين شيركوه» وهو يقص عليه ما حدث. كان يعرف أن خاله والسلطان «نورالدين» فى حرب لا تهدأ مع هؤلاء الصليبيين يخوضون ضدهم الموقعة وراء الأخرى.. ولكن السلطان وحده لم يكن يقدر على هزيمتهم.. كانوا كثيرين، جاءوا من كل بلدان أوربا.. ولكن المسلمين كانوا متفرقين.. فى الشرق كانت بقايا العباسيين.. وفى مصر كان الفاطميون وفى المغرب والأندلس كانت هناك دول كثيرة لا تعد ولا تحصى.. لكل واحدة سلطان مختلف. وله رأى مختلف، يحاربون بعضهم البعض أكثر مما يحاربون العدو المشترك..

وظل «يوسف» يتأمل رجال القافلة وهم ينحنون. ويدفعون الدنانير. والفرنجة يضحكون فى سخرية من ذلهم. وفى كل مرة ينزلون الرمح أكثر وأكثر لكى يزيدوا فى إذلال الجميع. وكان منظر شيخ القافلة الجريح.. كافيًا بأن يجعل الجميع يستسلمون. ووقف «يوسف» متسمرًا فى مكانه.

كان الخادم يعرف أن الإفرنج لو عرفوا أن «يوسف» هذا هو ابن أخت «أسد الدين شيركوه» القائد الذى دوخهم طويلا فسوف يأسرونه ويطالبون بفدية ضخمة.. لذا فقد أراد الخادم أن يدفع الدنانير التى يطلبها الفرنجة بسرعة وينجوان.. وصاح فيها القائد:

- هيه.. أنتما هناك.. هيا.. انحنيا وادفعا الجزية.

وهتف الخادم: هيا يا سيدى «يوسف».. ننجو بجلودنا قبل أن يعرفوا من أنت.

ولكنه فوجيء «بيوسف» وهو يقول له:

- كلا.. لن أنحنى أمام هذا الفارس. إنه عدوى ولن أنحنى أمام عدوى أبدًا.

والتفت الفارس الصليبى بحدة إلى «يوسف» ورمقه بنظرة مخيفة فارتعد الخادم وهو يقول:

- سوف يتقدم يا سيدى.. هيا.. هيا «يا يوسف».

ولكن «يوسف» صاح: كلا.

وهمز الفارس جواده وأقبل مندفعًا نحو «يوسف» كأنه سوف يدهسه بالحصان. وجرى الخادم وهو يرتعش. ولكن «يوسف» ظل واقفًا. لم يتحرك من مكانه. واضطر الفارس أن يوقف جواده أمام الصبى مباشرة وهو يصرخ فيه:

- لماذا تعصى أوامرى؟.. سوف أقتلك فى الحال.

ورفع السيف إلى أقصى ما يستطيع. ولكن يوسف لم يهتز. ظل يحدق فيه بثبات. وأنزل الفارس سيفه وقال مدهوشا:

- أنت لست خائفًا منى.. إننى.. إننى لم أر غلامًا مثلك من قبل.. كان يجب أن أمتلك فى الحال.. لو أن غلمان المسلمين مثلك هكذا لما استطعنا البقاء فى هذه البلاد.. ولكننى.. لا استطيع أن أقتل صبيًا لا يحمل حتى سكينًا.

واستجمع الخادم شجاعته وهرع نحو الفارس وهو يقول:
- اصفح عنه يا سيدى إنه غلام صغير لا يقصد ما يفعله.
وقال الفارس محاولا أن يسترد قوته أو كرامته التى فقدها:
- سوف يدفع وحده عشرين دينارًا.
وقبل أن يتكلم «يوسف» أسرع الخادم يقول:
- ها هى.. ها هى يا سيدى.

والتقط الفارس الدنانير بعنف. وعاد مسرعًا إلى فرسانه. كان «يوسف» واقفًا فى مكانه. وبدأ رجال القافلة ينهضون، ويقفون خلفه. كأنهم يحمونه. أو كأنهم يستمدون منه الشجاعة.. وهتف الفارس:
- هيا ننصرف.. قبل أن يتعلم رجال القافلة من هذا الصبى كيف يقاوموننا.

وأسرع الفرسان هاربين.. «ويوسف» يقف والناس من خلفه. لقد تحققت نبوءة هذا الفارس الصليبى وعلّم الغلام الناس كيف يقاومون الصليبيين وكيف يطردونهم من بلادهم.. لقد أصبح فارسًا شجاعًا هو «صلاح الدين الأيوبى» الذى غير اسمه إلى «صلاح الدين» بعد أن أصبح سلطانًا على مصر.. ووحد كلمة المسلمين وخاض ضد الصليبيين خمسا وعشرين موقعة كانت أكبرها وأشهرها «معركة حطين» التى استولى بعدها على بيت المقدس وجعل فرسان الصليب يدفعون الجزية ويخرجون ورءوسهم محنية من بوابات المدينة.

عبد الرحمن بن خلدون
مطاردة اللصوص

نظر «عبد الرحمن» إلى أبيه وهو يدخل من باب البيت. كان الأب «خلدون» واجمًا.. لم يحيى الابن. بل لم ينتبه حتى لوجوده. وإنما خلع عباءته. وفك غمد السيف من حول خاصرته ثم جلس على الأريكة وهو يتنهد. وترك «عبد الرحمن» الكتاب الذى كان يقرأ فيه واقترب من أبيه متسائلا:

– أبى.. ماذا حدث.. لماذا أنت عائد من قصر الحكم حزينًا هكذا..؟

نظر «خلدون» إلى ابنه ومسح بيده على شعره فى حنان وهو يقول:

إننى أواجه مشكلة كبيرة يا بنى، لقد سرق اللصوص مخازن كبار التجار فى سوق تونس. أخذوا الكثير من الأموال والبضائع الثمينة.. وقد جاء التجار إلى السلطان أبى الحسن يتظلمون، فما كان منه إلا أن طلب منى أن أقبض له على اللصوص فى الحال وإلا..

قال «عبدالرحمن»: وإلا ماذا يا أبى؟.

قال الأب: وإلا أقالنى من الوزارة.. وسوف يعين وزيرًا آخر بدلا منى.

قال «عبدالرحمن»: وماذا فعلت يا أبي؟.

قال الأب: وهو ينهض ويتجول في حيرة في أنحاء الغرفة: وماذا يمكن أن أفعل.. لا يوجد أثر.. ولا دليل.. ولا شهود.. لقد أرسلت رجال الشرطة إلى كل مكان.. وفتشوا كل أرجاء السوق ولكن لا يوجد أي أثر..

قال «عبدالرحمن»: دعني أساعدك يا أبي. سوف أخرج معك لنرى مكان السرقة ونسأل الناس من جديد لعلنا ننجح فيما فشل فيه رجال الشرطة.

كان «عبد الرحمن» مازال في الثانية عشرة من عمره. ولكن الأب «خلدون» كان يثق في ذكائه إلى حد كبير. ولم يكن أباه فقط هو الذي يعترف بذلك.. ولكن شهد بذكائه كل أساتذته الذين يعطونه الدروس في مسجد «القبة». كان «عبد الرحمن» يستوعب كل دروس الفقه والحديث ويهتم أكثر بتاريخ الأمم والشعوب.. وكان يحفظ أصعب الدروس من مرة واحدة.. ويردد القصائد الطويلة. لذا فقد وافق الأب على الخروج معه والذهاب إلى سوق تونس الكبير.

وفي السوق اكتشف «عبد الرحمن» أن اللصوص ما هربوا بالفعل. فقد فتحوا فتحة كبيرة في خلفية كل مخزن وتسللوا منها وسرقوا كل المخازن في ليلة واحدة. وحملوا كل شيء دون أن يتركوا أثرًا واحدًا. وسأل «عبد الرحمن» التجار والبائعين وحراس السوق ولكن لا شيء.. لم ير أحد أي شيء.. وقال الأب في يأس:

– لا أمل «يا عبد الرحمن».. لا يوجد دليل واحد يمكن أن يقودنا إليهم.

إن هؤلاء اللصوص لم يقعوا فى خطأ واحد.. هيا نعود إلى البيت.

ولكن «عبد الرحمن» قال فجأة وقد طرأت على ذهنه فكرة:

– ولكن.. إذا كنا قد فشلنا فى التعرف على أثرهم فى مكان السرقة.. ماذا لو حاولنا البحث عن المكان الذى يختبئون فيه.

قال الأب: وأين نبحث عنهم فى مدينة واسعة مثل تونس.

قال «عبدالرحمن» فى حماس: نذهب إلى الأحياء الموجودة فى أطراف المدينة حيث يتجمع الغرباء والمسافرون.. أجل.. لابد أنهم يختبئون فى مكان ما من هذه الأحياء.

ولم يكن أمام «خلدون» إلا أن يوافق على فكرة ابنه. ومن الخير له أن يحاول كل المحاولات حتى لا يفقد منصبه فى الوزارة هكذا ويقال عنه أنه وزير فاشل.. وسارا إلى أبعد أحياء المدينة.

كان الحى فقيرًا. بيوته مبنية من الحجر. ولا يسكنه سوى الغرباء وأصحاب القوافل وبعض العمال الفقراء. وسار «عبدالرحمن» وأبوه صامتين.. كان يخشى أن تفشل هذه الفكرة أيضًا. فقد كانت كل البيوت متشابهة. لا يوجد فيها ما يثير الريبة. ولا يوجد ما يوحى أن اللصوص يسكنون مثل هذا المكان.. وقال الأب فى حزن مرة أخرى:

– هيا «يا عبد الرحمن».. لقد تعبت.. دعنا نعد إلى البيت..

ولكنه فوجئ «بعبد الرحمن» وهو يشير إلى أحد البيوت ويهتف:

– انظر يا أبى.. انظر أمام هذا البيت.

ونظر الأب فلم يجد أى شيء غريب. هناك بيت مبنى من الحجر أمامه بعض القمامة وبقايا الأطعمة. حقا.. إنه من أقذر البيوت ولكن ما يدريه أن سكانه من اللصوص.. ولكن «عبد الرحمن» قال:

- هذا البيت لا تسكنه النساء لأن القمامة التى أمامه كثيرة ولو كانت هناك امرأة لقامت بتنظيفها على الفور.

قال الأب فى امتعاض: هذا ليس سببًا كافيًا.

وواصل «عبدالرحمن» استنتاجه وهو يتأمل كومة الفضلات:

وانظر إلى بقايا الأطعمة.. إنها كمية كبيرة.. مما يدل على أن سكان البيت كثيرون وليس بينهم أطفال.. إنهم يأكلون كثيرًا.

وحاول الأب أن يعترض.. ولكن «عبد الرحمن» واصل:

- وكلها بقايا سمك.. أجل.. أشواك وعظام.. كومة كبيرة حقًا.. أنت تعرف يا أبى أن البحر هائج هذه الأيام ولذا فإن أثمان السمك غالية جدًا.. ومن غير المعقول أن يأكل سكان هذا الحى الفقير طعامًا غاليًا مثل السمك فى هذا الوقت إلا إذا.

وقال الأب فى لهفة: إلا إذا ماذا؟.

قال عبد الرحمن: إلا إذا كانوا من اللصوص.

واندهش الأب من استنتاجات «عبد الرحمن».. ولكنها كانت منطقية ومعقولة. ولكن كيف يتأكد قبل أن تحضر الشرطة.. فلو كان سكان هذا البيت من الأبرياء ثم حضرت الشرطة فسوف ينبه هذا اللصوص الحقيقيين.. لذلك فعليهما أن يتأكدا من سكان هذا البيت قبل استدعاء الشرطة.

ذهبا إلى البيت المقابل للبيت المشتبه فيه. دق الأب على الباب فخرجت امرأة عجوز. طلبا منها أن تعطيهما قليلا من الماء لأنهما يحسان بالعطش. وأحضرت العجوز الطيبة الماء.. ولحسن الحظ أنها كانت ثرثارة فقد سألها «عبد الرحمن» فى حين كان أبوه يتظاهر بالشرب:

– أوه يا سيدى أن لك بيتًا نظيفًا.. ولكن كيف تطيقين جيرانك وهم يكومون الفضلات هكذا أمام باب بيتهم؟.

قالت العجوز فى امتعاض:

وماذا أفعل معهم يا بنى.. إنهم خمسة أو ستة رجال لا يخرجون أبدًا فى أثناء النهار. تصور.. إنهم يبقون بالبيت ويعتمدون على غلام صغير يقوم بخدمتهم.. إنهم لا يخرجون إلا فى الليل وقد حاولت ذات مرة أن أكلمهم عن هذه الفضلات.. ولكنهم خبئوا وجوههم بالعباءات السوداء ولم يردوا علىّ.. تصور.

ولم يكمل الأب شربة الماء. شكر السيدة وأخذ «عبدالرحمن» ومضيا مسرعين.. ونظرت السيدة فى أثرهم وهى ما تزال تكمل حديثها. كان الأب يريد أن يبلغ صاحب الشرطة قبل أن يحل المساء.. ولم تمض ساعة واحدة حتى كانت قوات الشرطة تحيط بالمكان كله وتقتحم البيت المشبوه. وتلقى القبض على الرجال الستة الذين كانوا نائمين.. ووجدوا الأموال والبضائع التى سرقوها.. بل ووجدوا مسروقات أخرى.. وسيق اللصوص الستة إلى مجلس السلطان أبى الحسن الذى نظر إلى وزيره «خلدون» فى دهشة وهو يقول:

– آه يا أيها الوزير الهمام.. لم أتوقع أن تقبض على اللصوص بهذه السرعة. ووضع «خلدون» يده على كتف «عبد الرحمن» وقدمه للسلطان

وهو يقول:

— إنه ابنى «عبد الرحمن» يا مولاى السلطان فالفضل يعود فى ذكائه إلى اكتشاف اللصوص. ونظر السلطان إلى «عبد الرحمن» فى إعجاب وهو يقول:

تقدم «يا عبد الرحمن».. سوف تكون وزيرًا بارعًا مثل أبيك عندما تكبر.

وتحققت نبوءة السلطان. وأصبح «عبد الرحمن بن خلدون» وزيرًا لأكثر من ملك.. فى تونس.. والمغرب.. والأندلس. بل وأصبح قاضى القضاة فى مصر. واستغل ذكاءه وعلمه فى إقرار العدل بين المتخاصمين.. ومعرفة الحق من الباطل.. واتسعت ثقافته لكى يدرس تاريخ الأمم.. وحضارات العرب المختلفة.. ووصف المجتمعات وتطورها.. ووضع عن ذلك كتابًا ضخمًا أصبح مشهورًا باسمه هو «مقدمة ابن خلدون» ثم كتب تاريخ العرب والعالم كله واتضح من خلاله مدى ذكائه وسعة علمه وقدرته على الاستنتاج.. وقال الجميع إن عقل ابن خلدون من أعظم العقول التى عرفتها الحضارة العربية.

يا قوت الحموى
سوف أصير حرًّا..

دخل الغلام إلى سوق «الوراقين» فى بغداد وأخذ يتطلع بانبهار إلى كل شىء. لم يكن السوق مزدحمًا بالناس. كان مزدحمًا بالكتب. كتب عربية وفارسية ولاتينية. مكسوة بالجلد الفاخر. ومزينة بماء الذهب. ومعطرة بالزعفران. وقال الغلام فى نفسه.. يا لله. ما أجمل هذا المكان.

فى أحد الحوانيت كان هناك شيخ يجلس إلى منضدة صغيرة وفى يده قلم من البوص. كان ينسخ الكلمات من كتاب أمامه بخط جميل مرتب. وعند الانتهاء من الصفحة كان يرش عليها قليلا من الرمل الناعم ويهزها حتى تجف وتتشرب ذرات الرمل الحبر الناعم، ثم يواصل العمل فى صفحة أخرى بالعناية نفسها ظل الغلام يراقبه قليلا ثم تقدم منه وهو يقول فى خجل بالغ:

— هل أستطيع أن أعمل معك فى نسخ الكتب يا سيدى..؟

وتأمل الشيخ الغلام. كان فى الثانية عشرة من عمره. أبيض الوجه. أشقر الشعر. لعله غير عربى. وسأله الشيخ:

— هل تجيد الكتابة بالعربية؟.

وقفز الغلام بسرعة إلى داخل الحانوت. تناول ورقة وقلمًا من البوص وأخذ يكتب بعضا من الآيات القرآنية. وأخذ الشيخ يراقبه وعلى وجهه ابتسامة. كان خطه جميلا بالفعل. وقال له الشيخ:

– أول شرط لتعلم هذه المهنة هي أن تحب الكتب. وتعشق الكتابة. إذا فعلت ذلك فسوف تكون كاتبًا ناجحًا.

كان اسم الغلام «ياقوت». وكان قادمًا من حماة.. أى أنه كان بلا مأوى فى بغداد. وكان على الشيخ أن يعلمه وأن يأويه وأن يخلق منه كاتبًا جيدًا.

وتعود ياقوت أن يجلس كل يوم على منضدة صغيرة فى مقابل الشيخ. ولأن الشيخ كان يريد منه أن يحب مهنة الكتابة فقد ترك له حرية اختيار الكتاب الذى ينسخه. اختار «ياقوت» كتابًا اسمه «المسالك والممالك». وكان أحيانًا يترك الكتابة ويسرح بعينه وسط السطور. وكان الشيخ يبتسم لأن هذه هى عادة المبتدئين الذين تسحرهم كلمات الكتب.

ثم ارتفع فى السوق الهادئ صوت غريب. كان هناك المنادى يدق على الطبلة ويصيح عاليًا:

– يا أهالى بغداد.. عبد هارب.. غلام فى الثانية عشرة من عمره.. أصله رومى..

استمع الشيخ قليلا ثم قال «لياقوت» دون أن يرفع رأسه:

– ياه.. إنه فى مثل عمرك تقريبًا «يا ياقوت».

لم يجب «ياقوت». ولم ير الشيخ تلك الصفرة التى كست وجهه. ولم يشاهد يده المرتجفة وهى تمسك القلم. وواصل المنادى قوله:

– سيده هو عسكر بن نصر الحموى. من يجده له مكافأة كبيرة. ومن

يتستر عليه حتى عليه العقاب.

ومرة أخرى علق الشيخ قائلا: ياه.. وهو من حماة أيضًا.

وعندما لم يسمع إجابة «ياقوت» رفع رأسه. فلم يجده أمامه. كان قد تراجع إلى آخر الحانوت. كأنه يريد أن يختبئ وسط الكتب. وجهه بالغ الشحوب وهتف به الشيخ:

- ماذا بك «يا ياقوت»؟.

قال وهو يحاول أن يخفى اضطرابه: لا شيء يا سيدى.. إننى مريض بعض الشيء.

وعندما انصرفا فى المساء كان «ياقوت» مازال يرتجف. وصلا إلى المنزل. وأعد له الشيخ حساء ساخنًا وأوصاه أن ينام حتى الصباح.

ولكن الشيخ استيقظ قلقًا فى منتصف الليل. كان مازال خائفًا على «ياقوت». سار إلى غرفته ودهش عندما وجد ضوءًا خافتًا ينبعث من تحت بابها.. ما هذا.. أمازال «ياقوت» ساهرًا. اقترب الشيخ من كوة صغيرة فى الجدار ونظر إلى داخل الغرفة. كان «ياقوت» جالسًا أمام مصباح صغير وهو يكتب. وكان مستغرقًا فى الكتابة إلى حد أنه لا يرفع رأسه.. وتعجب الشيخ أكثر حين وجد أنه لا ينسخ شيئًا. إنه يستحضر الكلمات من ذاكرته. أمامه صفحات كثيرة من الواضح أنه كتبها فى ليال كثيرة. عبر ساعات السهر الطويلة. اكتشف الشيخ فى هذه اللحظة أن غلامه لم يكن ناسخًا عاديًا. إنه كاتب. مؤلف. فى أعماقه أشياء كثيرة. وفى عقله معارف أكثر يريد أن يضعها على الورق.

فتح يالشيخ الباب ودخل إلى الغرفة وقال فى هدوء:

- «ياقوت» يا ولدى الصغير.. لماذا تواصل الكتابة حتى هذا الوقت

المتأخر من الليل؟ فوجئ «ياقوت» بدخول الشيخ. لم تكن هناك فرصة لإخفاء ما يفعله. جلس الشيخ وتناول الأوراق الكثيرة وأخذ يقرأ فيها. كان ما يكتبه يا قوت هو شيء غريب لم يسبقه إليه أحد من الكتاب. كان يؤلف معجمًا عن أسماء البلدان الإسلامية وأماكنها وتاريخها ومواقعها وأحوالها. كان يرسم بالكلمات خريطة لكل بلدان المسلمين صورة لشعوبها ومساجدها وعاداتها.. وقال الشيخ مذهولا:

- هل زرت كل هذه الأماكن «يا ياقوت»؟.

قال ياقوت: أجل يا سيدى. كنت أعمل مع قوافل التجار وقد سافرت كثيرًا ورأيت كثيرًا ولكن علىّ أن أسافر حتى أستطيع أن أرى بقية بلاد المسلمين وأتم الكتاب.

وظل الشيخ يقلب فى الأوراق مذهولا. طوال عهده بالكتب لم ير كتابًا كهذا.. قال:

- سوف يكون كتابًا رائعًا «يا ياقوت». سوف يساعد الرحالة على السفر. والتجار على تسيير القوافل. والحكام على تقدير الخراج.. فسوف يساعد أهل الحكمة والتنجيم والأدب والشعراء.. يا له من كتاب «يا ياقوت».

ورد «ياقوت» وهو يجمع أوراقه: من أجل ذلك يجب أن أواصل السفر يا سيدى.

وهتف الشيخ فى حرارة: كلا يا بنى.. أجل سفرك قليلا ولك منى الأمان وكرم الضيافة.. من النادر أن يستضيف المرء فى بيته كاتبًا كبيرًا.. سوف أساعدك على تأليف الكتاب بكل ما فى وسعى.. والآن.. اتركنى أذهب لصلاة الفجر ثم أعود إليك.

وضم الشيخ عباءته وغادر البيت مسرعًا. لم يفطن «ياقوت» إلى أنه مازال هناك وقت طويل على قدوم الفجر. ولكنه واصل الكتابة في استمتاع. كانت الطرق تمتد. والبلدان تظهر. مثل كائنات حية تتطور وتنمو. لكل مدينة شخصيتها. وجودها الحي في الزمان والمكان. لم يكن «ياقوت» يتحدث عن أحجار صماء. ولا عن طرق مقفرة. كان يتحدث عن دولة مترامية الأطراف. هويتها الإسلام. تضم العرب والعجم والترك.

وسمع صوت الباب الخارجي وهو يغلق. لابد وأنه الشيخ الطيب قد عاد من الصلاة. ورفع رأسه ولكنه وجد معه شخصًا آخر. يا إلهي.. إنه عسكر بن نصر الحموي. السيد الذي اشتراه عبدًا رقيقًا من سوق النخاسين. كان مجرد غلام رومي. أسير حرب. واشتراه نصر بن عسكر وعلمه القراءة والكتابة وكان تاجرًا مشهورًا فأخذ يصطحبه معه في كل رحلاته التجارية. ولكنه عندما هبطا للراحة في بغداد انتهز «ياقوت» الفرصة وفر هاربًا.. وهتف عسكر وهو يشاهده:

– آه أيها الغلام الهارب.. لقد وقعت في يدي أخيرًا.

أسقط في يد «ياقوت». رمى القلم في يأس. لقد وشى الشيخ به وسوف يعود عبدًا من جديد. ولكن ها هو الشيخ يتقدم يقول في حزم للسيد:

– تذكر ما اتفقنا عليه.. قبل كل شيء اقرأ الأوراق التي كتبها والكتاب الذي ينوي تأليفه.. وهدأ عسكر. جلس على الأرض وأخذ يتفحص الأوراق.. وخيم الصمت برهة طويلة على الغرفة وأخذ «ياقوت» يتطلع في قلق نحو الباب. كان يريد أن يقفز هاربًا. ولكن عسكر بن نصر رفع رأسه وهو يقول:

– يا للذكاء الحاد. كل هذه الأماكن ذهبنا إليها معًا. ولكنه رأى كل الأشياء التى لم أرها. كتاب رائع فعلا. من أجل هذا قد أعتقتك لوجه الله.

وهتف «ياقوت» فى فرح: حقًا يا سيدى.

قال عسكر: أجل. أنت حر منذ الآن. حر فى السفر معى ومشاركتى تجارتى والتفرج على بقية البلدان التى لم ترها حتى تتم كتابك على أحسن صورة.

وابتسم الرجلان والغلام. لقد شهدت هذه الليلة مولد أديب كبير هو «ياقوت الحموى». واحد من كبار الرحالة المسلمين الذين وضعوا أسس الجغرافيا عند العرب. وكان كتابه «معجم البلدان» هو أول موسوعة وافية عن أحوال العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى. ولم يكتف «ياقوت» بذلك ولكنه كتب معجمًا عن الدول فى هذا الزمن.. ومعجمًا عن الشعراء. وكتابًا عن أنساب العرب والعديد من الكتب التى أسس بها الحموى علم الجغرافيا الإسلامية وجعلته علمًا من أعلامها.

جابر بن حيان
اكتشاف الذهب الحقيقى

تلفت «حيان» حوله فى حذر ثم هتف لابنه:

- هيا «يا جابر».. البيت خال الآن.. دعنا نقوم بالتجربة الكيمائية قبل أن تعود أمك من السوق.

نظر «جابر» إلى الأب فى دهشة. كان يمسك فى يده وعاء من النحاس.. وهتف:

- ولكن يا أبى.. ماذا سنفعل بهذا الوعاء.. إنه وعاء الطهى.

قال الأب فى ثقة: أنه هو موضوع التجربة.. أترى.. سوف نحوله إلى ذهب..

وهتف «جابر» وقد خاب أمله:

- أوه يا أبى.. ليس ثانية.. لقد فشلنا من قبل.

ولكن الأب كان متحمسًا. جذب «جابر» بيده الأخرى ودخلا الغرفة الموجودة فى مؤخرة المنزل. وأغلق الباب بإحكام. كانت الغرفة مليئة بالزجاجات والبواتق والأنابيب وأجهزة التقطير. وكان الأب يقضى معظم وقته فيها يطالع الكتب ويقوم بإجراء التجارب. وتناول الأب لفة

من فوق أحد الأرفف.. وأخذ يزيح القماش من عليها بعناية حتى ظهرت زجاجة صغيرة أمسكها الأب باعتزاز ورفعها أمام «جابر» المدهوش وقال في سعادة:

- أتعرف ماذا في هذه الزجاجة.. إنه السائل المذاب فيه حجر الفلاسفة. وقال «جابر» مدهوشا: حجر الفلاسفة؟.

قال الأب وهو يتأمل السائل الأزرق في إعجاب:

- أجل.. لقد وصفه كل العلماء.. باللاتينية واليونانية.. إنه السائل الذى يستطيع أن يحول أى شيء.. أى شيء.. إلى ذهب.. لقد اشتريته من تاجر يونانى كان قادمًا من الصين ولم يكن يعرف قيمته.. أنا وحدى الذى يعرف قيمته.. وأنا وحدى الذى سيحول النحاس إلى ذهب.. هيا نبدأ العمل يا بنى.

وانتقلت عدوى الحماس إلى «جابر» فبدأ يساعد أباه بكل همة. وقال الأب:

- سوف أحضر أولا سائلا ينظف الإناء النحاس من كل الشوائب التى به. وأخذ «جابر» ينزل الزجاجات المطلوبة. ويرصها بجانب بعضها البعض. ونظف الإناء بالماء. ثم أخذ يراقب أباه في انبهار. كان يعجب دائمًا بقدرته على مزج السوائل. وكيف يحول ألوانها في ثوان قليلة.. يضع الأحمر.. على الأزرق.. فإذا بهما يتحولان إلى سائل لا لون له. ويضع السائل فوق النار. فيتحول إلى اللون الأخضر. تجارب عديدة ومثيرة كان الأب يقوم بها أمام «جابر».. يحول فيها الأشياء الجامدة إلى سائلة.. ويحول السائلة إلى مسحوق يمكن لمسه.. ويقرأ في كتب غريبة ويكتب رموزًا أشد غرابة.

وأمسك الأب فى يده بوتقة من الزجاج وقلب السائل الذى فيها جيدًا ثم قال:

- ها هو سائل التنظيف قد أصبح جاهزًا.

وأخذ يلقى ببعض قطرات على كل جزء من أجزاء الإناء.. ونظر «جابر» فلم يلحظ أى تغيير كان لونه هو الأحمر الضارب إلى السمرة كما هو.. وهتف الأب:

- أسرع «يا جابر» أحضر قطعة من القماش وامسح الاناء.

وأمسك «جابر» القماش ومسح الإناء فإذا بالسطح ينجلى عن لون أبيض براق.. ما هذا؟.. لقد ذهب اللون الأحمر والأسمر وأصبح سطح الإناء نظيفًا كما لم يكن من قبل. وهتف «جابر» مدهوشا:

- يا لله.. سوف تدهش أمى حين تجد الإناء نظيفًا.. ناصعًا كهذا.

قال الأب وهو يضيف المزيد من السائل:

- سوف تدهش أمك أكثر حين تراه وقد تحول إلى ذهب خالص.

والآن جاء دور حجر الفلاسفة. كانت ثقة «جابر» فى أبيه قد ازدادت بعد أن رأى ما فعله فى الإناء وأصبح يراه قادرًا على صنع أى شىء. وفتح الأب الزجاجة الصغيرة ووضع منها عدة قطرات فى البوتقة.. ثم أضاف إليها سائلا آخر وهو يقول:

- هذا هو السائل المغير لخواص المعادن.

ثم أخذ يضيف العديد من السوائل.. هذا جوهر الذهب.. وهذا بريق النجوم.. وهذا.. وهذا.. وهتف «جابر» فى دهشة:

أبى.. كيف عرفت سر هذه التركيبة..؟.

قال الأب فى انفعال زائد:

- قرأت نصفها فى كتاب يونانى قديم.. أما النصف الثانى فمن اختراعى.

وأخذ يسخن السائل فوق النار حتى تغير لونه تمامًا وأصبح لونه أصفر زاهيًا.. ودق قلب «جابر» والأب يقترب من الإناء.. ويتمتم ببعض الكلمات الغامضة. كلمات يونانية بلا شك.. ثم بدأ يضع السائل فى الإناء.. وفى الحال تصاعدت كمية كبيرة من الأدخنة.. أدخنة حمراء.. وخضراء.. وصفراء.. وكانت هناك أيضًا أصوات غريبة.. كأن هناك نوعًا من الغليان الشديد جعلت الإناء يهتز بهذه الصورة وهمس «جابر» فى خوف:

- أبى.. ما هذه الأصوات؟.

ل الأب وهو يفرك يديه فى سعادة:

- إنه المعدن.. يفقد خواصه القديمة.. ويكتسب الخواص الجديدة.. إنها عملية شاقة أن يتحول النحاس إلى ذهب.

ونظر «جابر» ولكنه لم يستطع أن يرى شيئًا.. كانت الأدخنة كثيفة من الغريب أن تخرج كلها من هذا الإناء الصغير.. وأحس «جابر» كأنه يوشك أن يختنق.. كانت الأدخنة قد ملأت الغرفة كلها ولم يعد يرى ما حوله فهتف:

- أبى.. وماذا بعد؟.

هتف الأب فى انتصار وهو يشير إلى الإناء:

- انظر ماذا حدث.. إنه الذهب.

ونظر «جابر».. ومسح الدموع التى كانت تهبط من عينيه بسبب

الدخان، لون الإناء قد تغير بالفعل. ذهب اللون الأبيض وجاء اللون الأصفر. هل تحول الإناء فعلا إلى ذهب.. يا رب السموات.. ولكن ما هذا.. إن اللون ليس ثابتًا إنه يتغير.. يتحول إلى الأحمر.. ثم يتحول إلى الأسود.. إنه.. يتقلص.. يتقوس.. يذوب.. ينصهر.. يتحول إلى كتلة سوداء.. يلتصق بأرض الغرفة ويتصاعد منه الدخان الأسود..

ووقف الأب صامتًا.. «وجابر» مذهولا.. وجاء صوت الأم من عند الباب وهى تتساءل:

– ماذا تفعلان بحق الله..؟

لم يحسا بالأم وهى تدخل البيت. وهى تفتح باب الغرفة. وود «جابر» لو يجد مكانًا يختبئ فيه. واقتربت الأم وهى تزيح الدخان من أمام وجهها حتى ألقت نظرة على الكتلة المنصهرة فهتفت وهى على وشك البكاء:

– أوه.. إناء الطهى العزيز.. إنه آخر واحد كان عندى.. مستحيل لا يمكن أن تفعلا بى هذا.

ووقف الأب مضطربًا.. وقال وهو يحاول الدفاع عن نفسه:

– مستحيل.. ليس هناك خطأ فالتركيبة مضبوطة.. لقد اخترعتها بنفسى.. وهتفت الأم.

– لا طعام.. أتسمعان.. لا طعام اليوم.. ولا غدًا.

وأدارت الأم ظهرها.. وانصرفت غاضبة.. وكان الأب مازال يمسك زجاجة سائل حجر الفلاسفة ويتأملها.. وأحس «جابر» أن هذه الزجاجة هى سبب الجوع الذى سيعانيه لبقية اليوم.. وهتف الأب..

– لقد غشنى التاجر اليونانى.. هذا ليس حجر الفلاسفة.

وبرغم الدخان. والإناء المنصهر. والجوع لبقية اليوم فقد أغرق

«جابر فى الضحك.. ولم ينس هذا اليوم أبدًا.. وعندما كبر ظل يمارس الهواية نفسها التى علمها له أبوه.. وبرغم أنه لم يحاول أن يحول النحاس إلى ذهب فقد أجرى عشرات التجارب الناجحة.. فقد اكتشف «جابر بن حيان» أن الكيمياء علم يحتاج إلى الدراسة المستمرة والبحث الدقيق.. لذا فقد ألف أكثر من خمسين كتابًا حتى سمى أبو الكيمياء.. وزعيم العلماء العرب.. وأدرك أنه عن طريق التجارب يمكن أن يصنع الأدوية التى تشفى المرضى، ويصنع الأصبغة التى يحتاج إليها الصباغون، ويحسن الصناعات.. ويساهم فى تركيب المعادن.. وفى نسج الأقمشة.. وفى صناعة الزجاج والورق، إنه لم يحول الذهب حقـا.. ولكنه اكتشف أن الذهب الحقيقى هو فى جعل العلم من أجل مساعدة الآخرين حتى تصبح حياتهم أفضل وأحسن.

شهاب الدين بن ماجد
سأنقذ هذه السفينة

مياه الخليج هادئة. ميناء «سيراف» ممتلئ بالسفن. من هنا ترحل هذه السفن إلى كل مكان. إلى الهند والصين. إلى أرض الحرير والبهارات والحكايات الغريبة. وفوق الصوارى كان بحارة الخليج السمر الأشداء ينتظرون إشارة الرحيل. ولكن «شهاب الدين» كان حزينًا وهو يقول:

– خذنى معك يا أبى. لقد أصبحت كبيرًا وأريد أن أرحل عبر المحيط.

ولكن الأب. الربان «ماجد». قال له فى حزم:

– ربما فى رحلتى القادمة. ربما فى العام القادم.

كان الأب عملاقًا أسمر اللون. يطلق عليه البحارة اسم ربان البرين. بر العرب وبر العجم. انشغل بترتيبات السفر فلم ير عينى ابنه الدامعتين كان «شهاب الدين» مصمما على الرحيل. أتعرفون كيف يضرب الموج الصخر فى عناد.. هكذا كان «شهاب الدين» عنيدًا.

ومضت السفينة. بالقرب من شاطئ الخليج. عبر عشرات من قرى الصيادين الفقراء والباحثين عن اللؤلؤ. كانوا يلوحون للسفينة. مع

السلامة يا ربان «ماجد». عدْ لنا سريعًا. احك لنا كيف تصعد الأفيال على الشجر. وتنام الجنيات تحت الشمس. وكيف تقدم الحيتان هدايا العنبر. مع السلامة يا ربان.

كانت هذه أجمل مراحل السفر. فبعد أن تغادر السفينة الخليج وتعبر مضيق هرمز حتى تبدأ رحلتها إلى المجهول. إلى المحيط الهندى المضطرم المليء بالعواصف والجزر الصخرية والمسالك الغامضة. ولكن لا أحد يخاف من هذا المحيط إذا كان فى صحبة الربان «ماجد». صرخ فى الرجال:

- ارفعوا الأشرعة.

ورفع البحارة الأشرعة فامتلأت بالهواء وأصبحت السفينة أشبه بطائر بحرى أبيض اللون لا يكاد يمس الموج من فرط سرعته. وتذكر ابنه «شهاب الدين». سوف يأخذه معه فى العام القادم. سوف يجعله أعظم بحارة الخليج ليكون ربانًا عظيمًا.. ولكن عليه قبل ذلك أن يتعلم القراءة والكتابة جيدًا. وأن يتم حفظ القرآن. ويقرأ كل الكتب التى كتبها الأب عن رحلاته وكل كتب البحارة الآخرين بعد ذلك يكون مهيأً لركوب البحر.

كان قد مر يومان على بدء الرحلة عندما صاح أحد البحارة:

- يا قبطان «ماجد». انظر ماذا وجدنا؟.

كان البحار يمسك غلامًا صغيرًا.. إنه «شهاب الدين». كيف جاء إلى هنا. وقال البحار:

لقد وجدته مختبئًا يا سيدى فى قاع السفينة.

كان «شهاب الدين» يرتجف أمام أبيه. الآن فقط أحس بفداحة الخطأ

الذى ارتكبه.. وظل الأب ينظر إليه مستغربًا ثم سأله:

– هل بقيت هذين اليومين دون طعام؟.

وأومأ «شهاب الدين» برأسه. كان يرتجف. وقال الربان للبحار:

– اذهب به. قدم له بعضًا من الطعام والشراب ثم عد به إلىّ.

انصرف «شهاب الدين». وبقى الربان وحيدًا. كان غاضبًا لأن ابنه قد عصى أوامره. وحزينًا لأنه رآه على هذه الصورة. كان الربان فى موقف حرج. كان يحس بالشفقة على ابنه ولكن عليه ألاّ ينسى أنه ربان أولا. عليه أن يعاقب هذا الشخص الذى أخطأ على سفينته.

وعندما عاد «شهاب الدين» كان وجهه قد استرد بعضًا من حمرة وجهه. وقال الربان:

لقد خالفت أوامرى «يا شهاب الدين». لقد عاقبت نفسك حين بقيت يومين بدون طعام. ولكن لابد من عقابى أنا أيضًا لا بوصفى أبوك ولكن بوصفى ربانًا لهذه السفينة.

قال «شهاب الدين» وهو منكس الرأس:

لقد أردت أن أثبت لك أننى أستطيع أن أكون ملاحًا يا أبى.

قال الأب: لا يوجد ملاح يعصى الأوامر.

كان عقابه هو أن يبقى جالسًا على برج معلق فى أحد الصوارى لمدة ثلاثة أيام. يجب عليه أن يعرف مشاق البحر. الشمس اللافحة فى النهار والهواء البارد فى الليل. وكان على البحارة أن يحضروا له طعامه وهو فى مكانه دون أن يشاركه أى واحد فى الكلام.

وجلس «شهاب الدين» فى مكانه. كان يرى السفينة من أعلى. ويرى

البحارة وهم يقومون بأعمالهم اليومية. وأدرك «شهاب الدين» أن هذا العقاب هو الضريبة التى يجب عليه أن يدفعها ليكون بحارًا ماهرًا. كان النهار مسليًا إلى حد ما. البحارة. وطيور الماء. وأسماك الدلافين. ونافورات الحيتان. ولكن عندما يقبل الليل. الليل المظلم البارد المخيف. كان «شهاب الدين» يحس بالخوف القاتل. يتخيل آلاف الأشباح والجنيات. وكل قصص البحارة. كان يغطى نفسه بكل الأغطية الثقيلة ولكنه برغم ذلك يظل عاجزًا عن النوم.

وكانت الليلة الأخيرة هى أبرد هذه الليالى. جلس البحارة جميعًا فى قاع السفينة. وكانوا جميعًا يعترفون بينهم وبين أنفسهم أن شجاعة الغلام قد فاقت كل حد. لقد تحمل العقاب دون أن يبكى أو يتأوه.. ولكن.. هل يمكن أن تمر عليه هذه الليلة الباردة. فكروا جميعًا أن يذهبوا إلى الربان يسألونه أن يعفو عن الغلام.. كانت قوانين البحر تمنع البحارة من مراجعة القبطان أو مناقشته. ولكنهم نهضوا معًا وذهبوا إليه.. قال رئيسهم:

– يا ربان «ماجد». لقد أثبت الصبى شجاعة فائقة. وتحمل الخطأ كاملا. ولكن هذه الليلة أبرد من أى ليلة ونحن خائفون عليه.

قال الربان: هذه هى ليلته الأخيرة. يجب أن يتعلم كيف يطيع وكيف يتحمل.

قال بحار آخر: ألست خائفًا عليه.

قال الربان: فى لحظة ضعف لم يرها البحارة من قبل:

– بل أنا أشد خوفًا منكم. إن كل الليالى التى قضاها فوق الصارى قضيتها أنا دون نوم وأنا أراقبه. ولكننا لسنا فى المنزل. إننا فى سفينة فى

عرض المحيط وما يسرى هنا هو قانون البحر.. وليس قانون العواطف.

وفى تلك اللحظة سمعوا صيحة عالية. كان «شهاب الدين» يصرخ:

- النجدة.. يا بحارة.. يا ربان.. جزيرة صخرية.

وأسرع الجميع إلى سطح السفينة. كان الظلام شديدًا، والبرد رهيبًا. و «شهاب الدين» فوق قمة الصارى يشير إلى جوف الظلمة وهو يصرخ:

- النجدة الصخور أمامنا.

وصدق البحار، وصدق الربان «ماجد». استطاعوا أن يلمحوا بصعوبة فوق الموج خطًا من الظلال الداكنة.. يا إلهى.. الصخور حقيقية. والسفينة تقترب منها. كأنها مجذوبة إليها. صخور سوداء قاسية. وأسرع الربان يدير الدفة. والبحارة يحولون اتجاه الأشرعة. امتلأت السفينة فجأة بالمحاولات المستميتة للإنقاذ. وظلت يد الربان قابضة على الدفة تديرها إلى أقصى مدى لها. وبعد جهاد مرير ضد الموج والرياح استدارت السفينة. ابتعدت عن الصخور. أفلتت من الكارثة.

وتنهد الجميع فى ارتياح. أسرعوا جميعًا ينزلون البطل الصغير من فوق الصارى. ونظر إليه الأب فى إعجاب والبحارة يحيطون به:

- الآن.. صرت بحارا حقيقيًا يا بنى.. وسوف تكون ربانًا بارعًا.

وصاح البحارة فى صخب بالغ وهم يرفعون «شهاب الدين» فوق الأعناق.

لقد كبر «شهاب الدين بن ماجد» وأصبح بالفعل أشهر ربان فى الخليج العربى. وكان البحارة يطلقون عليه «أسد البحار» ولم يكتف بقيادة

السفن من ميناء «سيراف» إلى شواطئ* الهند والصين. ولكنه ألف عشرات الكتب عن الملاحة العربية ووضع قواعدها ووصف الطرق البحرية للملاحة وكان يؤمن أن البحار العربي هو خير بحار على وجه الأرض لأنه صبور وصادق. صبور على السفر الشاق وصادق حين يتعامل مع الآخرين.

إن بعض المؤرخين يظلمون «ابن ماجد» حين يقولون إنه هو الذى قاد الاستعمار البرتغالى إلى شواطئ* الهند وبذلك وقع المحيط والخليج تحت سيطرتهم. لقد تبين خطأ هذا الزعم لأن «أسد البحار» كان أبرع من أن يخدعه أى نوع من الاستعمار أو أى بحار. لقد كان «ابن ماجد» هو أحد أسباب ازدهار الملاحة العربية. فكيف نعتقد أنه السبب فى القضاء عليها.

عبد العزيز بن سعود
عبور الربع الخالى

صاح الأمير «عبد الرحمن» فى الرجال:

– انتبهوا يا رجال.. نحن الآن فى منطقة «الربع الخالى».. محاطون بالرمال المتحركة من كل جانب.. فالزموا الحذر وسيروا ورائى.

كانوا مجموعة صغيرة من الرجال والجمال تسير على وجه الصحراء الواسعة. كأنها نقاط سوداء صغيرة تسير فوق الرمل الأصفر.. وكان الأمير «عبد الرحمن بن سعود» هو الذى يقودهم لأنه الوحيد الذى يعرف طرق هذه البقعة الوعرة ومسالكها.

وفوق جمل صغير.. كان ابنه الأمير «عبد العزيز» يجلس على جانب من الجمل.. وأخته الصغيرة «نوره» فى الجانب الآخر من الجمل.. كل منهما يعدل الآخر. والجمل الصغير يسير ببطء على الرمال الناعمة. وكانت الريح تدور بين الكثبان وتصدر صوتاً غريباً.. وكأنه صوت بكاء. كان «عبد العزيز» فى العاشرة من عمره. وبرغم ذلك كان يعرف ما حدث.. يعرف أن أباه ورجاله قد انهزموا.. وأنهم قد طردوا من مدينة الرياض التى كانوا يحكمونها.. وأنهم جميعًا الآن.. وسط رمال الربع الخالى

الموحشة يبحثون عن مأوى جديد. وقد اختار الأب هذا الطريق الوعر المليء بالموت حتى لا يستطيع أحد من الأعداء أن يتبعه.

كان الأب.. الأمير «عبد الرحمن».. رجلا صلبًا.. قويًّا.. أشبه بالنخل العالي.. ولكن وجهه كان حزينا.. ولم يكن «عبد العزيز» يعرف كيف يمكن أن ينهزم مثل هذا الأب القوى. لقد فقد «عبد العزيز» البيت الذى كان يحبه. والحديقة التى كان يلعب فيها مع أخته «نورة». وبئر الماء الذى كان يصيح فى صوت عال وينتظر حتى يسمع الصدى. ولكن الذى أحزن «عبد العزيز» أكثر من كل هذا هو وجه أبيه الحزين.

وأفاق «عبد العزيز» على صوت «نورة» وهى تسأله فى صوت منخفض يغلب عليه النعاس:

– «عبد العزيز».. أين نذهب يا أخى إننى لا أرى سوى الصحراء؟

وبلع «عبد العزيز» ريقه وحاول التغلب على أحزانه حتى لا تشعر به أخته الصغيرة:

– إن أبى يقودنا إلى مدينة جميلة.. أرضها خضراء.. وبيوتها بيضاء.. وأشجارها مليئة بالزهر الأحمر.. والطيور تملأ سماءها طوال اليوم.

وابتسمت «نورة» فى سعادة وأغمضت عينيها وأخذت تحلم بهذه المدينة الجميلة.

وجاء المساء أخيرًا.. وتوقف الركب وجلس الرجال جميعًا وأوقدوا نارًا. كان معهم بعض الأطعمة. وكانت الرحلة طويلة لا يدرى أحد متى تنتهى.. وظلت «نورة» نائمة. وجلس الأمير «عبد الرحمن» وأمامه «عبد العزيز» وحدهما بعيدًا عن الرجال. وظلا صامتين قليلا ثم قال الأب:

- غدًا سوف تكبر وتصبح أميرًا.. ولكن عليك أولا أن تعرف ماذا حدث بالضبط؟

قال «عبد العزيز»: أعرف أننا انهزمنا وطردنا من «الرياض».

وأومأ الأب برأسه وهو يقول:

- أجل. أنا واثق من ذكائك برغم صغر سنك. هزمنا أعداؤنا من قبيلة رشيد استولوا على قلعة «المسماق» وبذلك استطاعوا أن يستولوا على المدينة كلها..

قال «عبد العزيز» في دهشة:

- ولكن كيف هزمونا يا أبي.. لقد كنا من أقوى القبائل؟

قال الأمير «عبد الرحمن» وقد بدت نبرات الحزن في صوته:

- إنهم العثمانيون يا ولدي.. هم الذين دعموا آل رشيد.. إنهم يعرفون أن «آل سعود» يرفضون وجودهم في جزيرة العرب.. بل يرفضون أي أجنبي آخر. ولهذا تعاونوا مع «آل الرشيد» ضدنا.

بلع «عبد العزيز» ريقه وهو يقول.. والآن.. ماذا سنفعل؟.

قال «عبد الرحمن»: سوف نبحث عن مأوى في المدن الواقعة على شاطئ الخليج.. ربما في قطر.. أو الإمارات. أو الكويت.. وعندما نسترد قوتنا سوف نعود إلى الرياض من جديد.

وقال «عبد العزيز» كأنه يحلم: نسترد «المسماق».. ونسترد الرياض.

قال الأب في ثقة: أجل يا ولدي.

وواصلت القافلة سيرها في الصباح. وبدا كأن الصحراء بلا نهاية. وأن شاطئ الخليج لن يأتي أبدًا. وقالت «نورة»:

- إنى مريضة.. لا أستطيع أن أبقى على الجمل كل هذه المسافة.

كان وجهها أحمر من أثر الحمى. وأنزلها الأب وحملها بين ذراعيه.. وظل يسير بها وقالت له فى صوت ضعيف:

- متى نصل إلى مدينتك الجميلة يا أبى..؟

قال الأب: وأنت وأخوك يا ابنتى سوف تصنعان معًا أجمل المدن.

وسكتت «نورة» قليلا ثم قالت:

- هل أنت أمير كل هذه الصحراء يا أبى..؟

قال الأب: أجل يا ابنتى.. أنا أمير هذه الصحراء.. وسوف أبقى أميرها برغم أنف العثمانيين.. وواصلوا السير. وكان الطعام الذى معهم يتناقص باستمرار. واكتفى الجميع بوجبة واحدة كل يوم.

وأخيرًا اختفت الكثبان الرملية. وبدت الصخور والسلاسل الجبلية. ومن بعيد بدت واحات متفرقة تعلوها أشجار النخل تعلن عن وجود مدن جديدة.

وقال الأمير «عبد الرحمن»: هذه نهاية الربع الخالى. نحن الآن فى المنطقة الشرقية من الجزيرة.. هنا تنتهى حدود بلدنا وتبدأ حدود بلد آخر.

ثم نظر خلفه فى حزن. وأدرك «عبد العزيز» أن أباه فى هذه اللحظة يفكر فى الرياض «المدينة» التى أصبحت غاية فى البعد الآن. وتعالت أصوات أناس قادمين.. وفكر «عبدالعزيز».. هل هم من قبيلة رشيد..؟.

ولكن القادمين كانوا أناسًا عاديين جاءوا من الواحات التى تحيط بالمنطقة. لعلهم شاهدوا قافلة الأمير من فوق النخل فأقبلوا مسرعين. وقفوا أمام الأمير وهم يقولون:

- إلى أين تتركنا يا أمير «عبد الرحمن».. نحن شعبك وناسك؟.
وبدا التأثير على وجه الأمير وهو يقول:
- لن تطول غيبتي.. وسوف يقود ابني «عبدالعزيز» جيوش النصر إن شاء الله.
وتقدمت جماعة أخرى.. صاحوا:
- نحن جوعى يا أمير «عبد الرحمن».
وبدون تردد أشار «عبد الرحمن» إلى أحد أتباعه وهو يقول له:
- هيا.. أعطه نصف ما معنا من طعام.
وهتف التابع وهو يقول في حرج: ولكن يا أمير.. ليس معنا إلا القليل من الطعام.
ونهره الأمير قائلا:
- هيا.. أعطهم ما يحتاجون إليه.. فالأمير هو الأمير في كل مكان وتحت أي ظرف. ونظر إلى «عبد العزيز» كأنه كان يعنيه بهذه الكلمات.. ولم ينسها «عبدالعزيز». لم ينس أنه أمير حتى في أشد أيام المنفى قسوة. وظل يجلس الأيام الطويلة فوق ربوة عالية يتطلع إلى بعيد حيث تقع الرياض وتقع قلعة «المسماق».. كان يعرف أنه لن يحقق كلمات أبيه إلا إذا استولى على هذه القلعة. ساعتها يستطيع أن يفرض سيطرته. ويعلن إمارته. ويطعم الجوعى. وينتقم من آل رشيد الذين طردوهم من بيتهم.
وبعد عشر سنوات فقط كان «عبد العزيز» مازال يتذكر كل شيء. كان في العشرين من عمره في عنفوان شبابه وكان يستعد لعبور الربع الخالي للمرة الثانية ولكن في عكس الاتجاه في طريقه إلى الرياض.. وفي

شهر رمضان حقق «عبد العزيز» أحلام أبيه.. فقد هبط مع بعض أتباعه على المدينة واستولى على «المسماق». ولم يتوقف حلمه عند حدود الرياض فقط ولكنه امتد لكل الصحراء. وإلى بلاد الشام.. وقاد الثورة العربية الشاملة ضد الاحتلال العثماني.. وأصبح «عبد العزيز» هو الملك «عبد العزيز» الأب الأكبر للمملكة السعودية التى دخلت بفضله إلى عصر جديد.

عبد الحميد بن باديس
لن أتعلم فى هذه المدرسة

توقف المدرس الفرنسى عن الشرح. كان غاضبًا محمر الوجه وصاح وهو يشير بأصبعه:

– أنت.. أيها الطالب فى الصف الأخير.. قف.

واستدارت عيون بقية الطلبة فى الفصل ليشاهدوا ذلك الطالب الذى أثار غضب المدرس.

ونهض «عبد الحميد» واقفًا. كان نحيفًا. أسمر الوجه. واسع العينين. وصاح المدرس مرة أخرى:

– ماذا تخفى داخل ثيابك؟

لم يقل «عبد الحميد» شيئًا. أدرك بقية الطلاب أنه مذنب وعاجز عن الدفاع عن نفسه. وقال المدرس:

– تقدم إلى هنا.

سار «عبدالحميد» إلى حيث يقف المدرس. رمقه الباقون فى إشفاق. كانوا يعرفون أن هذا «المسيو» لا يرحم أى تلميذ يقع تحت يديه. وقف «عبدالحميد» أمامه. وأخذ المدرس يفتش ثيابه بسرعة وعصبية.

ثم هتف فى انتصار وهو يخرج كتابًا من بين طيات ثيابه.

– اه.. أنت تخفى كتابًا.

وأخذ يقلب فى صفحات الكتاب فى سرعة ثم تغير وجهه وأصبح أكثر غضبًا وأخذ يردد:

– إنه القرآن.. القرآن.. كنت أتوقع هذا.. أتوقعه.

ونظر إلى بقية التلاميذ الذين كانوا يراقبون ما يحدث بعيون خائفة. لوح «المسيو» بالكتاب عاليًا وقال فى صوت هادر:

– اترون مدى الجريمة التى ارتكبها زميلكم. مثل هذه الكتب ممنوعة فى المدرسة.. إنها جريمة. وفوجىء الجميع «بعبد الحميد» وهو يرد فى هدوء:

– إننى مسلم. ومن الطبيعى أن أحمل القرآن فى صدرى وبين ثيابى.

وزاد هذا من ثورة «المسيو» الذى هتف:

– سوف أرسلك إلى ناظر المدرسة. يجب أن يتم فصلك فى الحال.. هيا أمامى..

سار «عبد الحميد».. كانت المدرسة كبيرة. أكبر المدارس فى مدينة «قسنطينة» الجزائرية. تضم خليطًا من الطلبة الجزائريين وأبناء الجنود الفرنسيين. ولكن أساتذتها جميعًا كانوا من الفرنسيين ولم يكن يدرس فيها شىء إلا باللغة الفرنسية.

فى حجرة الناظر أعاد «المسيو» شرح الواقعة فصرخ الناظر فى رعب:

– القرآن.. كيف تخالف أوامرى.. إن كل الكتب العربية محرم دخولها إلى المدرسة.

وهذا الكتاب هو أخطرها جميعًا. سوف تقف فى فناء المدرسة ووجهك إلى الحائط طوال اليوم وفى الغد يجب أن تحضر ولى أمرك.

وفى فناء المدرسة تلقى «عبدالحميد» هذه العقوبة القاسية. كانوا يريدونه أن يبكى أو يعتذر أو يتراجع. ولكنه لم يفعل. رفع يديه وواجه الحائط وظل صامتًا. أخفى إحساسه الشديد بالظلم فى داخله.

لقد كان يحمل القرآن دائمًا كما أوصاه أبوه. لم يتركه يومًا واحدًا. وهذا اليوم كان يعدل من وضع ملابسه عندما لاحظه المدرس. كان «عبد الحميد» حزينًا لأن القرآن لم يعد معه. لأنه راقدٌ فى هذه اللحظة على مكتب الناظر. وكان حزينًا لذلك أكثر من حزنه على العقوبة.

تهامس الطلبة الجزائريون فى اشفاق وهم يشاهدونه. وضحك الطلبة الفرنسيون فى شماتة. وكان المشرف حازمًا فلم يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التخفيف عنه بأى كلمة. وعندما انتهى اليوم المدرسى أخيرًا. أحس «عبدالحميد» بجسده كله متصلبًا وبذراعيه مخدرتين. وسار فى بطء إلى البيت.

كان جزائريًا يسير فوق أرض جزائرية ولكنه أحس أنه غريب فى بلد غريبة.

وصل إلى البيت. كان أبوه الشيخ «باديس» بوجهه الطيب ولحيته البيضاء المسترسلة جالسًا فأخذ يقص عليه ما حدث له اليوم. وعندما وصل إلى لحظات العقاب الأخيرة انفجر فى البكاء وهو يقول فى صوت متقطع:

– إننى لا أحب هذه المدرسة يا أبى.. لا أريد أن أذهب إلى أولئك الفرنسيين.

قال الأب: هذا هو المؤسف يا بنى. إنهم فى كل مكان. ينتشرون على وجه الجزائر كالطاعون. سوف أذهب معك غدًا إلى المدرسة لأقابل هذا الناظر.

وقضى «عبد الحميد» ليلة طويلة وهو يتساءل.. لماذا يتحدثون فى المدرسة بلغة غريبة عن اللغة التى يتحدث بها الناس فى الشارع أو التى يتحدث بها أهله. لماذا يرفضون أن يقول على نفسه جزائرى ويصرون على أنه مواطن فرنسى برغم أنه لا يعرف فرنسا ولم يرها أبدًا فى حياته. ولم ير منها غير هؤلاء الجنود المسلحين الذين يجوبون الشوارع وهؤلاء المدرسين الذين يحاصرونه بالأوامر.

فى الصباح سار «عبد الحميد» مع أبيه إلى المدرسة. لم يقف فى الطابور. لم يردد نشيد «المارسليز». ولم يؤد التحية لعلم فرنسا. توجها إلى مكتب الناظر الذى كان ما يزال غاضبًا. وفور أن شاهد الأب أشار إلى كتاب القرآن الذى كان ما يزال موجودًا على مكتبه وهو يهتف:

– هذا هو جسم الجريمة التى وجدناه فى ثياب ابنك.

قال الأب: هذا ليس جسم جريمة. إنه كتاب الله القرآن الكريم. وابنى كمسلم يجب أن يحمله وأن يعتز به وأنا الذى أمرته بذلك.

وذهل الناظر من الرد. كان يتوقع أن يتراجع الأب وأن يؤنب ابنه وأن يعد الناظر وعدًا جازمًا بأن هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى. وبدأ الناظر ينظر إلى الأب إلى هيئته وثيابه ثم هتف وهو يهز رأسه:

– آه.. فهمت.. أنت رجل دين.. أليس كذلك؟.

قال الأب: أجل.. أنا شيخ جامع القسنطينة.

صاح الناظر وهو يخرج من خلف مكتبه: فهمت.. أنت الشيخ «باديس» الذى يحرض الناس علينا ويؤلبهم ضدنا. أجل. أنت تقول إن فرنسا تحتل هذه الأرض وتصر على أن اسمها «الجزائر» برغم أن هذه أرض فرنسية وراء البحار.. أليس كذلك؟.

قال الأب: يمكنكم أن تقولوا على الشمس أيضًا أنها أرض فرنسية فى منتصف السماء.. ولكن هذا لن يغير من حقيقتها.. الشمس هى الشمس.. والجزائر هى الجزائر.

صاح الناظر: سوف نأسف من أجل ذلك. لأن ابنك مفصول ولن يدخل أى مدرسة فرنسية بعد الآن.. مفهوم.. ل يدخل أى مدرسة.

قال الأب: لم آت لأعيده للمدرسة يا سيدى الناظر. لقد جئت لأقول له أمامك إنه على حق وأنا الكفيل بأن أعد مستقبله. والآن أرجو أن ترد لابنى كتابه.

تناول «عبد الحميد» الكتاب باعتزاز. وضعه بين طيات ثيابه مرة أخرى. أحس بالدفء والاطمئنان. وأمسك يد أبيه. وغادرا المدرسة معًا. مرفوعى الرأس. كانت المدينة تمتد أمامهما.. البيوت والمساجد والرجال فى ملابسهم البيضاء والنساء المحجبات.. مدينة عربية وليست فرنسية. مدينتهم. أرضهم. وقال «عبد الحميد»:

– والآن.. ماذا سنفعل يا أبى؟.

قال الأب وكأنه يحلم بالمستقبل: يجب عليك أن تتعلم العربية وأن تحفظ القرآن جيدًا. من أجل ذلك سوف تسافر أولا إلى مسجد «الزيتونة» فى تونس حتى تتعلم العربية بطريقة صحيحة. ثم تذهب بعد ذلك إلى الأزهر الشريف فى مصر.. حيث تتعلم وتتثقف الثقافة العربية

والدينية الأصيلة. هذه هي الخطوة الأولى لمقاومة الاستعمار الفرنسي يا ولدي. يجب ألا نجعله يصل إلى عقولنا.

بدأت رحلة التعلم. إلى تونس. ثم إلى مصر. وعاد إلى الجزائر مثقفًا عربيًا متدينًا. يدعو إلى النهضة القومية عن طريق فهم اللغة العربية وفهم الدين الإسلامي فهمًا عصريًا. كان يدرك أن مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر يجب أن تبدأ مع البذور الأولى. مع الصبية الصغار الذين يتعلمون حروف الهجاء. فالاستعمار لم يكن للأرض فقط ولكنه كان يريد أن يصل إلى كل العقول. وأنشأ «عبد الحميد بن باديس» سلسلة من المدارس كلها تعلم اللغة العربية وكلها تحفظ القرآن الكريم وتدرس تعاليم الإسلام. ومن هؤلاء التلاميذ الصغار خرج أبطال حرب التحرير الذين حاربوا جيش الاحتلال وحرروا الجزائر وأعادوا لها وجهها العربي.

عبد الكريم الخطابى
الهروب إلى الجبال

انتشر الجنود الأسبان فى كل مكان، شاهرين البنادق والسيوف، وأصاب هذا المشهد سكان مدينة «مليلة» المغربية بالرعب فأخذوا يسارعون بالاختباء، وتهامسوا لبعضهم:

– لابد وأن الجنود فى طريقهم للقبض على مجرم خطير.

ولكن الجنود اتجهوا نحو بيت صغير فى أحد الحوارى وأحاطوا به. وتقدم قائدهم وركل الباب ركلة خلعته من مكانه. ثم دخل ودخل الجنود خلفه مستعدين لإطلاق النار على الفور.

كان هناك صبى فى العاشرة يستذكر دروسه. وخادم نائم. ولكن القائد صرخ فى الصبى:

– أنت هو «عبد الكريم الخطابى»؟

حرك الصبى رأسه بالإيجاب فهتف القائد فى انتصار:

– بأمر الحكومة الأسبانية أنت مقبوض عليك.

وقال الصبى فى هدوء: لماذا؟.

وأحس القائد بالغيظ لأن الغلام برغم كل ما فعله مازال هادئًا فعاد يصرخ:

- ألا تعرف لماذا. لأن والدك الأمير الخطابي قد أعلن التمرد علينا.

لأنه يشن الحرب ضدنا الآن في بلاد الريف ويطالب بخروج أسبانيا من كل المغرب. وقال عبد الكريم بالهدوء نفسه: إن كان أبي قد فعل هذا فهو على حق.

وصرخ القائد في جنوده أن ينقضوا على الغلام فانقضوا عليه. أحاطوا جسده الصغير بالقيود الحديدية. وساروا به في شوارع «مليلة» الضيقة. وقال الناس في حزن وهم يتأملونه:

- إنه «سي عبد الكريم». ابن أمير الريف. قبضوا على ابن الأمير.

وفي القلعة ألقوا «بعبد الكريم» في زنزانة ضيقة وهتف به القائد:

- سوف تبقى هنا دون طعام ولا شراب حتى يرضخ أبوك ويتراجع عن قتالنا.

كان «عبد الكريم» يعرف جيدًا أن أباه لن يرضخ. إنه يعيش فوق الجبال. له كبرياء النسور وصلابة الصخور. لقد تعلم. مثل بقية أهالي الجبال - أن الحرية تساوي الحياة. وعندما غزا الجيش الأسباني المدن المغربية لم يستطع الوصول إلى منطقة الريف الوعرة. وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الجهاد من أجل طردهم سوف يبدأ من هذا المكان.

كان الأمير الخطابي يحب ابنه «عبدالكريم». يعده ليكون أميرًا من بعده. لذا فقد أرسله إلى مدينة «مليلة» كي يدرس ويتعلم ويتفقه في الدين. ولكن ها هم الأسبان ينتهزون الفرصة ويقبضون عليه لكي يساوموا عليه مع والده.

مرت ثلاثة أيام و «عبد الكريم» داخل الزنزانة. كان يحس بألم شديد من قسوة الجوع. وكان ريقه جافا وجسده خائرًا حتى أنه لم يكن قادرًا على الوقوف عندما فتح الباب ودخل القائد. نظر إليه فى تشفى وهو يقول:

– هل تأدبت. أرجو أن يعرف أبوك ماذا يحدث لك. هيا اكتب له أن يكف عن القتال.. لو فعلت فسوف نعطيك طعامًا ساخنًا (دجاج وأرز). سوف تشرب عصير الفواكه.

كان «سى عبد الكريم» أضعف من أن يستطيع الكلام ولكنه هز رأسه علامة على الرفض. كان يفضل الموت قبل أن يطلب من أبيه أن يتراجع. وضرب القائد الأرض بقدميه وهو يتمتم:

– أيها الصبى المجنون.. سوف تموت جوعًا.

واستدار ليخرج ويغلق الزنزانة من جديد. ولكن «سى عبد الكريم» سمع صوتًا مغربيًا يقول:

– سيدى القائد.. أنت تعرف كم أخدمكم بإخلاص.. وأنا أرى أن قتل مثل هذا الصبى لن يكون فى مصلحتنا أبدًا.

رفع «عبد الكريم» رأسه. كان هناك رجل عجوز محنى الظهر. يقف أمام القائد. لحيته بيضاء ووجهه ملطخ بالسناج. وقال القائد مدهوشًا:

– وكيف ذلك يا بلبال؟.

قال العجوز وهو يرمق «سى عبد الكريم» بنظرة سريعة:

– لو تركناه يموت فسوف نفقد الورقة الرابحة فى أيدينا التى نضغط بها على الأمير الخطابى.. بالإضافة إلى أن قتله سوف يجعل أباه يطالبنا بالثأر ولن يتراجع أبدًا عن قتالنا. يجب أن يعيش الصبى ومادام فى

قبضتنا فلابد أن الأب سوف يضعف ويلجأ للتفاوض.

وظل القائد مدهوشًا قليلا ثم قال:

– إنها أفكار طيبة يا بلبال.. يبدو أن المغاربة يتمتعون بقدر من الذكاء.. أحضر له بعض الطعام.

وانصرف الاثنان. وبعد قليل عاد العجوز وحده. كان يحمل معه بعضًا من الطعام والماء. جلس أمام «سى عبد الكريم» ومد أصابعه المرتعدة يحاول أن يربت بها على رأسه. ولكن «عبدالكريم» انتفض وأزاح يده. وابتسم الرجل وهو يقول:

– كلْ يا بنى.. كلْ كلَّ الطعام.

ولكن «عبد الكريم» هز رأسه بالنفى. كان يريد أن يفسد خطته. لم يكن يريد أن يبقى على قيد الحياة حتى لا يُرغِم أباه على المصالحة. ولكن الرجل العجوز هتف به:

– كل يا بنى. يجب أن تكبر لأن أباك الأمير فى حاجة إلى الجنود حتى يستطيع أن يواصل القتال ضد الأسبان.

ونظر «عبدالكريم» إلى الرجل. كان فى صوته بضع من الصدق. ولكن لماذا يتعاون مع الأسبان. لماذا يعمل معهم. وكأن الرجل كان يقرأ أفكاره فقد قال:

– سوف تكبر وتصبح أميرًا. وتعرف أن الرجال يمكن أن يخدموا بلدهم فى أى مكان.

وانصرف الرجل. وظل «سى عبد الكريم» جالسًا قليلا ينظر إلى الطعام. الرجل على حق. أبوه فى حاجة إلى جنود. يجب أن يكون بجانبه فى كل المعارك التى سيخوضها ضد الاستعمار الأسبانى. ومد

«عبد الكريم» يده وتناول أول لقمة. انتفض جسده كله. كأن الحياة تعود إليه. تذكر وجه أبيه وهو يوصيه أن يسافر إلى «مليلة».. وأن يجيد الدرس والتحصيل. قال له. ادرس جيدًا لتكون أميرًا جيدًا. وتناول «سى عبد الكريم» جرعة من الماء. تخيل قومه وهم يركبون الخيول ويرفعون السيوف ويصيحون فى صوت واحد «الله أكبر».. كلا.. لن يموت من الجوع داخل السجن الأسبانى. وإذا كان يجب أن يموت فليمت مع قومه فى ميدان القتال.

وفى منتصف الليل سمع «عبد الكريم» صوتًا غريبًا. باب الزنزانة يفتح ببطء. والرجل العجوز يتسلل داخلا. وقال الرجل فى همس:

- «سى عبد الكريم» استيقظ. الحرس نائمون ويمكنك أن تهرب الآن.. هيا. لم يكن لدى «عبد الكريم» وقت يضيعه. استيقظ. سار خلف الرجل. سارا بجانب الجدران ببطء حتى لا يراهما أحد. وصلا إلى السور. أشار الرجل إلى سلم صغير موضوع على السور وهو يقول:

- هيا. اصعد إلى هذا السلم واقفز إلى الخارج. غادر مدينة «مليلة» على الفور. اذهب للجبال وبلغ تحياتى لأبيك الأمير.. هيا.

صعد «عبدالكريم» سريعًا. وصل إلى أعلى السور. فى الجانب الآخر كانت هناك كومة من القش. وتحرك «عبد الكريم» حتى أصبح فوقها تمامًا ثم قفز فى الفضاء وهوى على الأرض. وتمتم الرجل العجوز يشكر الله. لكن «عبد الكريم» كان يشعر بألم فى ساقه. ولكن يجب ألّا يبقى فى هذا المكان. يجب أن يبتعد عن «مليلة» وأن يعود للجبال إلى أبيه وقومه.

إن العزيمة تولد داخل الإنسان طاقات كبيرة. لقد استعان بكل الوسائل حتى هرب إلى الجبال. عاونه الناس البسطاء الذين كانت تهزهم

بطولة والده. ولكن إصابة ساقه لم تفارقه. حتى بعد أن كبر وأصبح أميرًا ظل يعرج عرجًا خفيفًا ذكرى للحظة هروبه من سجن «مليلة» لقد رحل إلى الجبال فوجد أن أباه قد استشهد فى معاركه ضد الأسبان وكان عليه هو أن يصبح أميرًا وأن يواصل القتال ضد الاستعمار الأسبانى ثم ضد الاستعمار الفرنسى. وكان اسمه كفيلا بإثارة الذعر فى نفوس الأعداء. وكان الفرنسيون يطلقون عليه فى غيظ.. «الأمير الأعرج» ولكن هذا الأمير الأعرج كان علامة على هؤلاء الرجال العظام الذين ظلوا يدافعون عن الأمة العربية ضد كل أعدائها.

طه حسين
الحلم الذى تحقق

كان «طه» يسير وحيدًا على حافة الترعة فى طريقه إلى كتاب القرية حيث يتعلم كل الأطفال الذين فى سنه ويحفظون القرآن.

ولكن «طه» كان مختلفًا عن بقية الأطفال.. كان أكثر منهم ذكاء.. وذاكرته قوية. ولسانه طليق.. ولكن كان هناك شيء ينقصه عن كل هؤلاء الأطفال.. كان أعمى.

فى هذا اليوم كان «طه» سعيدًا فوق العادة. وبرغم أن أخاه الأكبر تعود أن يوصله كل يوم إلى الكتاب إلا أن «طه» أصر أن يذهب وحده اليوم.. «طه» يعرف طريقه باللمس. وبالشم. وبالسمع أيضًا. يحفظ موقع كل حفرة. ومكان كل حجر. ويشم رائحة الماء.. ورائحة الحقول.. ورائحة البيوت.. ويسمع أصوات الريح.. والطيور.. والناس ومن كل هذا يعرف أين هو.. وإلى أين يتجه.

ولكن.. لماذا كان «طه» سعيدًا فى هذا اليوم بالذات؟.

لقد أتم حفظ القرآن الكريم كله. سورة سورة. وآية آية. من أول صفحة حتى آخر صفحة. ويستطيع الآن.. أن يتذكر موضع أى آية من

الآيات.. ويتلوها تلاوة سليمة.. بل وبصوت جميل منغم أيضًا.

والآن.. ما أن يصل طه إلى الكتاب حتى يجلس أمام سيدنا الشيخ ويقول له إنه مستعد للامتحان. وسوف يحاول سيدنا أن يحاوره سيجعله يتلو آيات من أول الكتاب.. وآيات من آخره. سوف يحاول أن يجعله يقرأ البدايات الأولى لكل السور.. ولكن مهما فعل «سيدنا» فإن «طه» يحفظ القرآن جيدًا.. ولن يجد سيدنا مفرًا من أن يجعله «عريفًا» أى رئيسًا لكل الأطفال فى الكتاب.. وسوف يزف البشرى إلى أبيه ويقول له:

– أبشر يا عم حسين.. ابنك «طه» قد حفظ القرآن.. لقد حمل نور الله فى صدره.. مبروك.

وتخيل «طه» وجه أبيه وهو يتهلل من الفرح. وهو يشعر بالفخر لأن «طه» قد رفع رأسه عاليًا وسط البلد كلها.

وصل «طه» إلى الكتاب.. سمع صياح الأطفال وصوت سيدنا وهو يأمرهم بالسكوت. ودخل «طه» كان يعرف المكان الذى يجلس فيه سيدنا.. سار حتى وقف أمامه وقبل أن يخبره أنه مستعد لأداء الامتحان فوجىء بصوت الشيخ وهو يقول له:

– هيه «يا طه».. هل أحضرت النقود؟.

وفوجىء «طه» بالسؤال. ولابد أن علامات الحيرة بدت واضحة على وجهه فقد قال سيدنا فى غلظة:

– طبعًا.. واضح من وجهك أن أباك لم يرسل معك قرشًا واحدًا.. هكذا الحال منذ شهرين كاملين.. شهرين «يا طه» دون أن يدفع أبوك ثمن تعليمك. فى الكتاب وأجرة تحفيظك للقرآن.

وارتبك «طه».. ولم يدر ماذا يقول.. فهو لم يحمل أبدًا نقودًا للشيخ. كان أبوه يقابل سيدنا في البلد ولابد أنه كان يعطيه أجره في هذه الأثناء.. ولكنه الآن لا يدرى ماذا حدث.. قال في ارتباك:

– أنا يا سيدنا.. أنا.. جئت لكى أخبرك إننى أتممت حفظ القرآن.

ولكن الشيخ بدلا من أن يهدأ ازدادت ثورة غضبه. وأخذ يصيح:

– مـاذا.. أتممت القرآن.. هـذا مـا كـان ينقصنى.. أتممت القـرآن يا سيدى.. هيه.. يحق بالعربى انا انتهت مهمتى قبل أن أقبض الثمن.. هه.. تريد أن تصبح عريفًا للكتاب وأشهر غلام في القرية وأنا لم أقبض منكم مليمًا «يا طه».. اتق الله «يا طه»..

قال «طه» في توسل:

– يا سيدنا أنا لا أفهم في أمر النقود.. أنت دائمًا تدبر أمورك مع أبى.. كل ما أريده فقط هو أن تمتحنى في حفظ القرآن حتى أتأكد من حفظى له.

ولكن سيدنا واصل الصياح:

– كلا.. كلا «يا طه».. لن أجرى لك الامتحان.. ولن تصير عريفًا.. لن يحدث ذلك قبل أن يدفع أبوك لى أجرى.. هيا.. اذهب من أمامى.

وسار «طه» مبتعدًا من أمام الشيخ.. ومن الكتاب كله.. كان الأطفال كلهم يحدقون فيما يجرى وقد كفوا عن الضجة واللعب. وسار «طـه» حزينًا. كسير القلب. ذهبت كل أحلامه.. رفضها سيدنا بدون أى تفاهم. ضاعت الليالى التى سهر فيها يراجع السور.. آية.. آية.. كان أبوه يقول له دائمًا إنه إذا نجح في حفظ القرآن فسوف يقيم له احتفالا يحضره كل أهل البلد.. والآن.. من الذى سيصدق أنه حفظ القرآن..؟

عاد «طه» من الطريق نفسه. على حافة الترعة دون أن يشم شيئًا.. سار بين الحقول وتحت الأشجار دون أن يسمع شيئًا.. لم يكن يحس فقط إلا بالهزيمة. حتى أنه شعر أنه إذا سئل مرة أخرى عن آيات القرآن فلن يستطيع الإجابة.

وصل إلى البيت فاستقبلته أمه بدهشة:

– ماذا بك «يا طه».. لماذا عدت من الكتاب مبكرًا يا ولدى.

قال «طه» باختصار وهو يتجه إلى الغرفة التى ينام فيها:

– إننى مريض.

وسارت الأم خلفه.. قاست درجة حرارته. ووضعت يدها على صدره ولكنه طلب منها أن تتركه وحده.. وتركته الأم ولكنها ظلت تروح وتجيء أمام الحجرة فى قلق حتى عاد أبوه.. وعندما أخبرته بما حدث اتجه على الفور إلى حيث يجلس «طه» منزويًا فى الركن.. ولم يحتمل «طه» فانفجر فى البكاء حين سأله أبوه عما حدث وقص عليه ما فعله الشيخ به.. وكيف صاح به وسط زملائه.. وأخذ الأب يربت عليه ويهدئه.. وقال:

– سيدنا مخطيء «يا طه».. لم يكن يجب أن يعاملك بهذه الطريقة وأنت حافظ كتاب الله.. إيه.. ماذا أقول لك.. موسم القطن هذا العام كان خاسرًا.. والقرية كلها تعانى من هذه الضائقة.. وسيدنا أول من يعلم ذلك.. على العموم سوف يعوضها الله.. وسوف أدفع لسيدنا حسابه كاملا.. أما أنت فقد عملت ما عليك.. المهم أن القرآن دخل صدرك.. إنه نور «يا طه».. نور لن يغادر قلبك أبدًا.. هيا.. انهض.. وشم الهواء خارج المنزل.. وسوف أذهب أنا لمقابلة سيدنا.

وخففت هذه الكلمات من أحزان «طه». وخرج إلى الفناء الخارجى

أمام البيت وهناك فوجىء أن هناك زوارًا له.. إنهم زملاؤه فى الكتاب جاءوا للسؤال عنه.. وجلس طه.. وجلسوا حوله.. وأخـذوا يضحكون معه.. ويقلدون سيدنا بصوته الأجش. وبحركاته. وفجأة قال واحد منهم:

– ولماذا يكون سيدنا فقط هو الحكم على حفظك للقرآن.. إن كل واحد منا يحفظ جزءا من القرآن حفظًا جيدًا وسوف نقوم نحن بامتحانك كل واحد فى الجزء الذى يحفظه.. كلنا جميعًا سوف نمتحنك.. هيا.

وصاح بقية الأطفال يشجعون «طه»:

– أجل.. فكرة رائعة.. هيا.. هيا يا «طه».

وتردد «طه» قليلا ثم اقتنع بالفكرة. وبدأ يتلو القرآن بصوت جميل عذب. وتعالت أصوات الاستحسان من الزملاء. ثم بدأ يسمع أصوات أناس آخرين.. كان هناك صوت أمه.. وأخته.. وأخيه الأكبر.. ثم بعد ذلك بدأ يسمع أصوات أناس من القرية.. أحس كأن الساحة كلها قد امتلأت بالناس.. وهم يرددون أصوات الاستحسان خلف كل آية يتلوها. كل أهل القرية قد التفوا حوله.. كلهم يقيمون له الامتحـان بعد أن جذبهم صوته الجميل.. هذا هو الامتحان الحقيقى.. وأوشكت الدموع أن تطفر من عينيه وهو يسمع أصواتهم تعلو:

– الله يا شيخ «طه» الله.. الله ينور عليك.

ولم ينس الطفل «طه حسين» هذا اليوم أبدًا.. لم ينس مقدار الحزن والفرح.. والشقاء والسعـادة.. لقد تعلم منـذ هذا اليـوم طعم الأحلام الجميلة.. وغادر قريته ليواصل تعليمه فى القاهرة. بين أروقة الأزهر.. ثم سافر إلى باريس حيث نال أعلى الشهادات العلمية. ولم ينس هذا اليوم.. وألف العديد من الكتب الهامة. وأصبح عميدًا للأدب العربى.. ولم ينس

هذا اليوم حتى أصبح وزيرًا للتعليم فى مصر واستطاع أن يحقق حلمه أخيرًا.. لقد جعل التعليم مجانًا.. من حق كل الناس مثل الماء والهواء.. وكان يقول دائمًا.. إن التعليم هو الخطوة الأولى نحو الحرية.

عباس العقاد
هذه الوظيفة لا تليق بي

وقف «عباس» أمام مكتب مدير المصلحة «حسونة أفندى». كان رجلا عجوزًا على رأسه طربوش حائل اللون. وفوق عينيه نظارة سميكة. وعلى مكتبه أكوام كبيرة من الملفات والأوراق.

وتقدم «عباس» خطوة أخرى ليلفت انتباهه ثم قال:

– أنا الموظف الجديد.

وفجأة تغيرت ملامح «حسونة أفندى» وضرب المكتب بقبضته وهو يقول:

– كيف يحدث هذا.. كم عمرك؟.

قال «عباس» فى صوت متلعثم: أربعة عشر عامًا.

ازدادت ثورة «حسونة أفندى»:

– أربعة عشر عامًا وتريد أن تكون موظفًا فى وزارة الأوقاف.. من الذى سمح بهذا العبث؟

تراجع «عباس» خطوة إلى الوراء واحمر وجهه من شدة الخجل وقال مدافعًا عن نفسه:

– لقد نجحت فى الامتحان الذى عقدته الوزارة وكان ترتيبى الأول على كل المتقدمين بالإضافة إلى أننى أجيد الكتابة. وأكتب الأشعار والمقالات و ... .

ولكن «حسونة أفندى» لم يدعه يكمل. واصل ثورته الغاضبة. ولكن لم يكن أمامه إلا أن ينفذ التعليمات. «فعباس» بالفعل قد اجتاز امتحان القبول وكان ترتيبه الأول على مئات المتقدمين. وكان عليه أن يضعه فى الوظيفة بشكل مؤقت ولن يثبت فيها إلا بعد أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

وأخيرًا انصرف «عباس» من أمام المدير. وجد لنفسه مكتبًا صغيرًا فى قسم «الكتبه». ولاحظ موظفو القسم العجائز هذا الموظف الصغير وهو ينظف مكتبه فى عناية. ثم يرص أمامه مجموعة من الأقلام المختلفة ثم يبدأ بعد ذلك فى العمل.

كان «عباس» غريبًا عن القاهرة. جاء من أسوان فى أقصى صعيد مصر. تطل على نهر النيل وتشتهر بالخزان الموجود بها وبالآثار الفرعونية القديمة. ولكن «عباس محمود العقاد» وهذا هو اسمه الكامل لم يكن يعرف أنها سوف تصبح مشهورة أكثر لأنها البلدة التى أنجبته.

كانت موهبة «عباس» الأدبية مثل زهرة بدأت تتفتح وهو صغير السن. فى المدرسة كان يكتب موضوعات الإنشاء بلغة جميلة. ويقول الشعر بصوت عميق. ويقرأ كل ما فى المكتبة من كتب الآداب العربية. وفى التاسعة من عمره قال أول قصيدة من الشعر وتنبأ له مدرس العربى أنه سوف يكون أديبًا عظيمًا. ومن أجل هذا جاء إلى القاهرة. جاء يبدأ

رحلته الأدبية من خلال الصحافة والندوات والمكتبات. ومن أجل هذا بدأ يعمل حتى يعتمد على نفسه.

ولكن «حسونة أفندى» لم يتركه فى حاله. كان مازال غاضبًا لأن الوظيفة المحترمة أصبح يشغلها أطفال صغار وبرغم أن زملاء «عباس» لاحظوا مدى دقته فى عمله. وحلاوة خطه. وحسن أسلوبه إلا أن «حسونة أفندى» قرر أن يغير عليه.

وهكذا هجم فى يوم من الأيام على مكتب «عباس» وأخذ يتفحص الأوراق والملفات الموجودة عليه. ووسط دهشة «عباس» وبقية الموظفين أخذ يفتح الأدراج. حتى عثر على ورقة غريبة. مكتوبة بخط جميل والكلمات مصفوفة فى صفين منتظمين. وقال فى غيظ:

– ما هذا؟

رد عباس: إنها قصيدة من الشعر.

وهتف «حسونة أفندى»: الله.. الله.. ما هذا ما كان ينقص المصلحة. نحن نريد كتبة يا أستاذ لا شعراء..

مفهوم.. أنت منقول إلى قسم المحاسبة هيا اجمع أوراقك وألق قصائدك فى سلة المهملات. وشعر «عباس» بالغيظ الشديد. ولكنه لم يقل شيئًا. كان «حسونة أفندى» فى عمر والده تقريبًا. لذلك أخذ أوراقه وذهب إلى الدور الأسفل إلى قسم المحاسبة.

كان القسم ضيقًا. مليئًا بالموظفين وبالدفاتر الضخمة فيها عشرات الأرقام.. وانهمك «عباس» فى الجمع والضرب والطرح حتى أحس بالملل الشديد. كان «عباس» يهوى الشعر والموسيقى ويذهب فى كل مساء إلى الندوات الأدبية أو إلى الاجتماعات السياسية. وكان يقسم مرتبه

الشهرى قسمة عادلة. الثلث للسكن والثلث للطعام والثلث للكتب. كان يرى أن الثقافة تساوى الغذاء. ومثلما يحشو الإنسان بطنه بالطعام عليه أيضًا أن يحشو عقله بالمعرفة.

ولكن «حسونة أفندى» لم يرض عنه أبدًا. قام مرة أخرى بالإغارة على مكتبه فى قسم المحاسبة. عبث فى كل أوراقه وفتح كل دفاتره حتى عثر على مجموعة من الأوراق كان «عباس» يخبئها فى أقصى درج من أدراج المكتب. وصرخ فى انتصار:

- ما هذا.. مقالة أدبية.. يا للمصيبة.

وعبثًا حاول «عباس» أن يفهمه أن هذه هوايته. وأنه يقوم بكتابة هذه الأشياء فى المنزل. وهو لم يحضرها هنا إلا لأنه سوف يمر على إحدى الصحف بعد انتهاء العمل فى المصلحة. ولكن «حسونة أفندى» هدر فى صوت ملىء بالغضب:

- أنت منقول - منقول إلى الأرشيف.

وهبط «عباس» إلى أسفل المصلحة. حيث يوجد الأرشيف فى البدروم تحت المبنى. مكان معتم. قليل الإضاءة. يبدو أن الزمن قد نسى ما به من موظفين عجائز لا يتحركون إلا بصعوبة. وقفوا قليلا يتأملون ذلك الموظف الصغير جدًا الذى ساقه حظه السيئ إلى هذا المكان. وأحس «عباس» أنه مظلوم. لذلك فقد كره المكان منذ النظرة الأولى.

ولكن كان فى الأرشيف ميزة واحدة هى أنها أعطت الفرصة «لعباس» حتى ينتقم من «حسونة أفندى». فقد وقعت فى يده مذكرة كانت مكتوبة بخط «حسونة أفندى». كانت مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية. وجلس «عباس» يصحح كل هذه الأخطاء بقلمه الأحمر وبخطه المميز

الجميل. وكان عدد الأخطاء فى مذكرة واحدة ومكتوبة على صفحة واحدة خمسين خطأ كاملا.

وانتشرت الورقة فى أنحاء المصلحة. وكانت فضيحة. أخذ كل الموظفين يتحدثون عن ذلك المدير الذى لا يعرف المبتدأ من الخبر ولا الفعل من الفاعل. وثار «حسونة أفندى». هجم على مكتب «عباس» فى الأرشيف. فتح كل الدوسيهات والدفاتر والأدراج ولكنه لم يجد شيئا. ولم يكن هناك مكان أبعد من الأرشيف يستطيع أن ينقله إليه.. لذلك فقد خصم عدة أيام من مرتبه وظل يتحين الفرصة مرة أخرى.

وفى ذات يوم كان يتصفح إحدى الجرائد عندما وجد صورة «عباس» تطل عليه. كان هادئا مبتسما. والجريدة قد نشرت له مقالا بعنوان «الوظيفة رق القرن العشرين» موقع تحته باسمه الكامل «عباس محمود العقاد» كانت المقالة تنتقد نظام الوظائف وتحكم الرؤساء، وتشبه الوظيفة بالعبودية الجديدة، لأنها لا تدع الفرصة للإنسان حتى يبدع ويحقق ذاته.

ولكن «حسونة أفندى» لم ير فى المقالة أكثر من أنها مخالفة صارخة ونقد عنيف للوظيفة والأهم من ذلك أنها تقدم مبررًا كافيًا لفصل المدعو «عباس العقاد» من العمل.. وهبط «حسونة أفندى» إلى الأرشيف وهو فى غاية السعادة.. ووقف أمام الموظفين وهتف فى صوت عال:

– «عباس يا عقاد» أنت.

ولكن «عباس» لم يدعه يكمل. لقد قدم له ورقة وعلى وجهه ابتسامة صغيرة. وعندما قرأ «حسونة» السطور فوجىء أن «عباس» يسخر منه مرة أخرى. يقدم له استقالته قبل أن يقوم هو برفده. وكاد يجن من الغضب.. ولكن «عباس» كان قد جمع أوراقه وغادر المصلحة إلى الأبد.

إن الأديب «عباس العقاد» لم يلتحق بعد ذلك بأى وظيفة. كـانت الكتابة هى وظيفته الدائمة. كان يقرأ كثيرًا حتى يعرف أكثر. ويكتب كثيرًا حتى يكتب أحسن. وألف العديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية والإسلامية. كتب العقاد أكثر من خمسين كتابًا كانت خير سفير للإسلام فى بلدان العالم. كانت أشهرها كتبه عن العبقريات الإسلامية مثل عبقرية محمد. وأبى بكر.. وعمر.. وكانت حياته مليئة بالخصوبة فقد أثار العديد من القضايا الأدبية والفكرية وظل مخلصًا للكتابة حتى مات.

جمال عبد الناصر
من الذى يعشق الفقراء؟

الفتاة الصغيرة التى تبيع «السكر النبات» واقفة على رأس الشارع. رآها «جمال» كما تعود أن يراها كل يوم وهو فى طريقه إلى المدرسة. واقفة برغم البرد الشديد. وجهها شاحب. وثيابها ممزقة. ولم يكن أمام «جمال» إلا أن يتقدم ويخرج كل ما فى جيبه من قروش صغيرة ويعطيها لها. ثم يمضى مسرعًا. أخذت الفتاة تنادى عليه لكى يأخذ ما يقابلها ولكنه واصل سيره للمدرسة.

كانت مدرسته هى «مدرسة النحاسين» فى ذلك الحى القديم الذى يجمع الصناع المهرة. فقراء ولكنهم طيبين. كان «جمال» يحس بينهم أنه وسط أهله خاصة وأنه كان يعيش بعيدًا عن أبيه وأمه. كان الأب يعمل موزعًا للبريد. ينتقل فى كل فترة إلى بلد جديد. حتى أن «جمال» ولد فى الإسكندرية. ونشأ فى أسيوط. وعندما بلغ الثامنة كان عليه أن يستقر فى مكان واحد يكمل فيه تعليمه. لذلك أرسله الأب إلى القاهرة ليعيش مع عمه «خليل» ويلتحق بالمدرسة.

سار «جمال» وسط شوارع الحى القديم الملىء بالآثار الإسلامية. مساجد وقصور وخانات. تتناثر بينها دكاكين الحرفيين والصناع. وكان «جمال» يسأل نفسه دائمًا.. لماذا يعيش هؤلاء الناس الذين يملكون كل هذا التاريخ وسط هذا الفقر؟.

كان «جمال» قد ذهب مع عمه خليل إلى الأحياء الأخرى من المدينة.. شاهد الأحياء الفاخرة.. وقصور الملك.. وثكنات جيش الاحتلال البريطانى.. وأدرك أن هؤلاء الفقراء برغم أنهم أصحاب البلد الحقيقيين هم غرباء فى بلدهم.. غرباء مثله تمامًا.

عندما وصل «جمال» إلى المدرسة شاهد الناظر الإنجليزى واقفًا فى مكان عال. كان وجهه أحمر من شدة الغضب وهو يتأمل صفوف التلاميذ ويصيح:

- مظاهرات نو.. مفهوم.. مسيرات.. نو.. مفهوم.

ثم اتجه كل الطلبة إلى الفصول وسأل «جمال» أحد زملائه:

- ماذا حدث..؟

قال الطالب فى همس: طلاب المدارس الثانوية خرجوا فى مظاهرة للمطالبة بجلاء الإنجليز والناظر خائف من أن تفعل مدرستنا مثلهم.

وتمنى «جمال» أن يكون فى المدرسة الثانوية حتى يخرج معهم.

كانت الحصة الأولى فى التاريخ.. و«جمال» يعشق التاريخ. ويحب محمود أفندى مدرس هذه المادة. وعندما دخل المدرس وكتب على السبورة بالخط العريض «صلاح الدين الأيوبى» أحس «جمال»

بالسعادة لأنه قرأ هذا الدرس فى المنزل.. ولكن شرح محمود أفندى كان مختلفًا تمامًا عن كلمات الكتاب الباردة.. كان «صلاح الدين» على لسانه فارسًا ينبض بالحياة.. يصيح بصيحة الجهاد فتتجمع الجيوش من خلفه من كل بلاد العرب ثم يخرج لمواجهة الصليبيين.. يرسم الخطط ويسير الجيوش ويقتحم القلاع ويحرر مدن فلسطين مدينة وراء أخرى حتى يدخل القدس فتدق الأجراس وترتفع أصوات التكبير من على المآذن. كان «جمال» يتابع المدرس. ويسمع بأذنه وقع حوافر جواد «صلاح الدين». وصليل سيوف معاركه. وفجأة وسط هذه المعمعة فتح باب الفصل ودخل الناظر الإنجليزى غاضبًا وصرخ فى صوت عال:

- «صلاح الدين».. نو..

ورد عليه محمود أفندى فى عنف:

- هذا تاريخنا ومجد أمتنا.

واشتبكا فى حوار صاخب. وأخذ الناظر الإنجليزى يهدده بالرفد والطرد ولكن محمود أفندى لم يتراجع.. وانتهى اليوم الدراسى مبكرًا.. لم تكن المدرسة فقط هى التى تعانى الاضطرابات.. ولكن مدينة القاهرة كلها فى تلك الأيام من عام ١٩٢٥ كانت مدينة مضطربة. فالمظاهرات لم تكن تنقطع من الشوارع. مظاهرات يشترك فيها العمال والطلبة والموظفون كلها تريد شيئًا واحدًا هو «الحرية».

خرج «جمال» من المدرسة.. كانت هناك مظاهرة للمدارس الثانوية قادمة من الاتجاه الآخر. والطلبة يرفعون زميلا لهم فوق الأكتاف وهو يصيح بصوت قوى:

- الاستقلال التام أو الموت الزؤام..

ولم يفهم «جمال» ماذا تعنى كلمة «الزؤام» ولكن الكلمات كانت تمس أعماقه. تجعله ينتفض. أخذ يصرخ معهم بصوت عال. وسأل واحدًا من المشاركين:

- إلى أين تسير هذه المظاهرة؟.

قال الشاب فى سرعة: إلى دار المندوب السامى البريطانى. يجب أن يعرف أن الشعب كله ضد الاحتلال. ولكن المظاهرة لم تتقدم خطوة أبعد من ذلك.. ففى نهاية الشارع ظهرت فرقة من الجنود الإنجليز.. كانوا يسدون الشارع تقريبًا وهم يحملون فى أيديهم البنادق.. تأمل «جمال» وجوههم وأسلحتهم. وفى لحظة أدرك «جمال» لماذا منع الناظر تدريس «صلاح الدين».. كان هؤلاء الإنجليز هم الصليبيون الجدد. والناظر خائف من أن يظهر «صلاح الدين» من جديد ليجمع الجيوش ويقتحم القلاع ويحرر كل الأرض.

وبدون إنذار بدأ الجنود يطلقون النار على المتظاهرين. دوى صوت الطلقات كالرعد. وتحولت المظاهرة السلمية إلى مصيدة للموت. كان الطلبة عزلا لا يملكون شيئًا. والرصاص القاتل لا يرحم لذا أخذوا يجرون فى فزع إلى الشوارع الجانبية. وتوقف «جمال» مذهولا.. كان يتوقع أن يظهر «صلاح الدين» فى هذه اللحظة وينقض على الجنود بجواده. ولكن بدلا من ذلك دفعه طالب كبير السن إلى أحد الشوارع الجانبية وهو يصيح:

- لماذا تقف هكذا.. ألا ترى الموت؟.

كان الرصاص قد أصبح كالمطر. والناس يجرون من الفزع إلى أى

مكان.. ولم يتوقف الأمر عند هؤلاء الجنود.. كانت هناك عربات مسرعة تحمل جنودًا آخرين وهم يطلقون الرصاص فى الهواء. كانوا يريدون إفزاع المدينة كلها.. وأخذ الناس يرشدون الطلبة إلى الشوارع الضيقة التى لا تدخلها السيارات.. ولكن سيارات الإنجليز كانت موجودة دائمًا عند المخارج الرئيسية.. لقد وضعوا قبضتهم حول المدينة من كل ناحية.

ولكن «جمال» وصل إلى رأس الشارع الذى يسكن فيه أخيرًا.. كان عليه فقط أن يجتاز الطريق. وشاهد من وقفته البنت الصغيرة بائعة السكر النبات.. يبدو أنها لم تبع شيئًا منذ الصباح. وقبل أن يعبر «جمال» الشارع أقبلت سيارة إنجليزية مسرعة. كان جنودها يطلقون الرصاص ويصدرون أصواتًا عالية.. وفوجىء «جمال» بالفتاة الصغيرة وهى تسقط على الأرض. والسيارة تمضى دون أن تأبه بها. وجرى «جمال» نحو الفتاة بسرعة. فى حين جرى آخرون خلف السيارة فى محاولة يائسة للحاق بها.

نظر إلى وجهها الصغير الشاحب. كان هناك خيط من الدم ينسال من جبهتها على حين تناثرت حولها قطع «السكر النبات» صرخ واحد من الناس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله اطلبوا الإسعاف.

وأمسك «عبد الناصر» يدها فأدارت الفتاة وجهها نحوه. تذكرت ذلك التلميذ الذى كان يحرص كل يوم على أن يشترى منها قطعة من السكر. وهذا الصباح بالذات أعطاها كل نقوده دون أن يأخذ شيئًا. كانت تتألم ولكنها ابتسمت فى وجهه وأغمضت عينيها.

كان «جمال» يبكى فى صمت. والناس من حوله يضربون كفًا بكف. واسرع بعضهم ليحملها ويجرى بها إلى أقرب مستشفى. لم ينسها

«جمال». كان عمره وقتها ثمان من السنوات، ولكنه لم ينسها. لم ينس أن جنود الاحتلال هم السبب فى قتلها. وأن مصر فى حاجة لمن يخلصها من هذا الاحتلال. العالم العربى كله فى حاجة إلى «صلاح الدين» من جديد. لقد كبر «جمال»، ودخل المدرسة العسكرية وأصبح ضابطًا فى الجيش المصرى، واشترك فى حرب فلسطين. ورأى كيف ضاعت فلسطين على أيدى عملاء الاستعمار. لقد قتلوا الفتاة الصغيرة مرة أخرى على أرض فلسطين. وقام «جمال عبد الناصر» هو وبعض من رفاقه بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وكان هدفه الأول هو التخلص من الاستعمار. وكان حلمه أن تتحول الشعوب العربية إلى شعب واحد. وكان أمله أن يوفر للفقراء الذين عاش بينهم وخرج من وسطهم كل أهداف الحياة الكريمة. وكان «عبد الناصر» حتى اللحظة الأخيرة من حياته هو بحق.. عدو الاستعمار وزعيم الفقراء.

نابليون يصيب الهدف

جرى أطفال الجزيرة إلى الشاطئ الصخرى. كان «نابليون» يجرى معهم.. ولكن «شاريه» ذا الشعر الأحمر هتف به:

– إلى أين أنت ذاهب «يا نابليون».. أنت قصير القامة ولا تصلح لأن تكون جنديًا.. ولكن «نابليون» نظر إليه فى غيظ وهو يهتف:

– بل سوف أصبح جنديًا.. وسوف أكون أيضًا قائدًا عليك.

وواصلوا الجرى وبذل «نابليون» جهدًا مضاعفًا حتى سبقهم جميعًا إلى شاطئ الجزيرة.

كانت السفينة الكبيرة القادمة من فرنسا قد وصلت إلى شاطىء جزيرة كورسيكا. كانت تأتى فى هذا الميعاد من كل عام لكى تختار الأطفال الصالحين للتجنيد وتحملهم إلى فرنسا حيث يتعلمون الفنون العسكرية ويصبحون جنودًا فى خدمة الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا.

كانت الجزيرة فقيرة، ولم يكن البحر سخيًا مع أهلها من الصيادين. كان يعطيهم أحيانًا.. ويثور أحيانًا فيغرق سفنهم القديمة.. لذلك فقد كان التجنيد فى الجيش فرصة لهؤلاء الأطفال من أجل راتب أفضل وحياة

مريحة فى فرنسا. وكانت ثياب الجندية الملونة تملؤهم بالزهو والكبرياء.

وعندما وصل الأطفال وجدوا الجنود وقد اختاروا تلاً مرتفعًا بجانب الشاطىء. ونصبوا عدة خيام فوقها العلم الفرنسى. وكان بعض الآباء والصيادين يقفون يراقبون عملية الاختيار وكل أب منهم يتمنى أن يقع الاختيار على ابنه.

أمر الضابط الأطفال أن يقفوا فى صفين مستقيمين. ووقف «نابليون» فى الصف الثانى. وطلب الضابط من كل طفل أن يذكر اسمه.. وتعالت الأصوات:

- سيمون.. راؤول.. فرانس.. شاريه.. نابليون.. جان..

وأخذ الضابط يسير بمهل. يتأملهم. طول قامتهم. لون بشرتهم. هل صحتهم جيدة. هل يتحملون تدريب الجندية الشاق. وأخرج الضابط من الصف العديد من الأطفال. كانوا شاحبى الوجوه. يعانون من الضعف والهزال. ولكنه لم يخرج «نابليون». لم يلاحظ أن قامته أقصر من الآخرين. كان فى مستواهم.. وربما أعلى قليلا.. وأمر الضابط أحد الجنود أن يسجل أسماء هؤلاء الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار.. وفى هذه اللحظة تقدم «شاريه» بشعره الأحمر ولكز «نابليون» بقوة فألقاه على الأرض وضحك كل الأطفال. وهتف الضابط:

- سكوت.. كفى ضحكًا.

وصمت الأطفال على الفور. واستدار الضابط فلمح «نابليون» الواقع على الأرض. أمره بالنهوض فى صوت صارم:

- انهض أيها الغلام.. عندما تصبح جنديا لا يجب أن تقع بدون سبب..

وقال «نابليون» وهو ينظر ناحية «شاريه» فى غيظ:

— آسف.. لقد تعثرت يا سيدى.

وانتظر الضابط حتى اعتدل الغلام.. ولكن ما هذا؟.. إن قامته أقصر من الآخرين لحد واضح.

كيف لم يلاحظ هذا فى البداية. لقد وقف فى الصف ونطق أسمه وكان فى مثل قامة الآخرين.. قال الضابط:

— لقد كنت طويل القامة.. ماذا حدث؟

وهتف «نابليون» بارتباك:

— لا شيء يا سيدى.. إننى طويل القامة بالفعل.

وضحك الأطفال. وفكر الضابط فى نفسه: لابد أن هناك خدعة ما. ودخل الضابط بين الصفين فوجد حجرًا عاليًا كان «نابليون» يحاول الوقوف عليه.. وهتف الضابط:

— آه.. هذا هو السبب إذن!!

ونزل «نابليون» من فوق الحجر بارتباك.. وود فى هذه اللحظة لو يستطيع قتل «شاريه».. وقال:

— عفوًا يا سيدى.. ولكننى متشوق لأن أكون جنديًا.

قال الضابط فى حزم: لا يليق بالجندى أن يكون غشاشًا مزوّرًا.

قال «نابليون»: أرجوك يا سيدى.. لا تجعل قامتى القصيرة تقف عائقًا أمامى.. إننى أجيد العدو.. والمصارعة.. والملاكمة.. وأجيد الرماية بصفة خاصة.. إننى لا أخطىء الهدف أبدًا ويمكن أن أكون جنديًا ممتازًا من جنود المدفعية.

قال الضابط: ولكن قامتك سوف تكون قصيرة يا بنى.

قال «نابليون»: سوف أنمو يا سيدى.

قال الضابط: عليك إذن أن تنتظر حتى العام القادم.

وشعر «نابليون» بالحزن. ولكنه لم يكن بالطفل الذى ييأس بسهولة. عاد يقول للضابط:

- سوف أقوم باختبار عملى أمامك يا سيدى لعلك تقتنع بمهارتى فى الرماية. انظر إلى أسفل التل.. هناك حيث يوجد القارب الذى نقل الجنود من السفينة إننى أستطيع أن أصيبه من هنا.

نظر الضابط إلى حيث يوجد القارب. كان بعيدًا جدًّا. لا يظهر منه غير العلم الذى يرفرف عليه.

وقال الضابط فى سخرية: مستحيل إنه بعيد جدًّا ولا أستطيع أن أراه إلا بصعوبة.

قال «نابليون»: يكفى أن أصيبه بأحد الأحجار.. كلا.. سوف أصيب الدفة.. أجل. الدفة على وجه التحديد.

وضحك الضابط. وضحك بقية الجنود والأطفال على إصرار «نابليون». وأخرج الغلام مقلاعًا صغيرًا من جيبه وربط فيه الحجر وأخذ يدور به فى الهواء عدة دورات ثم قذف به بأقصى قوته إلى أسفل التل.. ونظر الضابط فى أثره فلم يعرف إن كان قد أصاب القارب أم لا وعاد ينظر إلى «نابليون» فى إشفاق وهو يقول:

- اسمع أيها الفتى.. الجندية تختلف عن ألعاب الأطفال. نحن هناك لا نستعمل المقالع ولا الأحجار ولكن نستعمل السيوف والمدافع.. لماذا

لا تذهب وتبحث عن مهنة أخرى غير الجندية. وأحنى «نابليون» رأسه. وجاهد حتى لا تنزل الدموع من عينيه. وترك الساحة. والجنود. والأطفال الذين تم اختيارهم. وانسحب وحيدًا. لقد فشل. ولن ينجح أبدًا فى أن يكون جنديًا.. لن يعود إلى القرية ولن يخبر أمه بهزيمته سوف يذهب إلى التلال البعيدة ويقذف البحر بالأحجار حتى تهدأ حدة غضبه.

وجمع الجنود الخيام. وأنزلوا العلم. وطلبوا من الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار أن يذهبوا ويحضروا أمتعتهم الشخصية استعدادًا للسفر فى الصباح المبكر إلى فرنسا. ثم اصطف الجنود فى صف واحد وبدءوا يهبطون التل فى طريقهم إلى السفينة لقضاء الليلة فيها.. وكان الضابط هو أول من قفز إلى القارب.. ما هذا؟.. لقد وجد حجرًا. أجل.. الحجر نفسه الذى ألقاه الطفل القصير القامة. مستحيل أن يصيب الهدف من هذه المسافة البعيدة.. لابد أنها المصادفة.. ولكن.. لقد قال الغلام أنه يمكنه أن يصيب دفة القارب.. اتجه الضابط إلى الدفة وتفحصها. هناك علامة حديثة عليها. إنها العلامة التى أحدثها الحجر.. إنها ليست مصادفة. هذا الصبى بارع فى الرماية حقًا وسوف يكون جنديًا رائعًا للمدفعية.. والتفت للجندى الذى كان يقف بجانبه وهو يقول له:

- أيها الجندى. عد إلى الجزيرة واحضر هذا الصبى القصير.. يجب أن يلحق هذا الرامى البارع بالجيش.

وفى صباح اليوم التالى توجه طابور الأطفال إلى السفينة. كان الصبى القصير يتقدمهم وعلى وجهه كل علامات السعادة. وأدى التحية فى فرح أمام الضابط الذى قال له:

- ما اسمك أيها الفتى؟.

هتف الغلام: «نابليون بونابرت» يا سيدى.

قال الضابط: لن أنسى هذا الاسم أبدًا.

ولم يكن فى مقدور أى واحد فى فرنسا أن ينسى. لقد أصبح هذا الجندى القادم من كورسيكا أبرع قواد الجيش. ثم أصبح قائده الأول. كان عبقرية حربية استطاعت التغلب على العديد من الجيوش التى حاربها وفتح أوربا كلها من جديد وكان يؤمن أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع وأن المعارك يجب أن تكسب بالذكاء أولا ثم بالقوة ثانيًا. وقاد فرنسا إلى انتصارات كثيرة ثم أصبح أول حاكم وامبراطور لفرنسا ودخل القائد «نابليون بونابرت» التاريخ كواحد من أبرع قواد الحرب فى العالم.

إديســـون..
وأصغر جريدة فى العالم

عندما انطلق القطار من مدينة «دترويت» بالولايات المتحدة.. ارتفع صوت الصبى وهو يعلن:

– اقرأ آخر أخبار الحرب بين الشمال والجنوب.. آخر الأخبـار.. الشماليون ينتصرون فى آخر المعارك.. الجنرال جونستون يموت.

ولم يصدق الركاب آذانهم.. كانت هذه الأخبار جديدة عليهم بالفعل.. والتفوا جميعًا حول الصبى كل واحد يريد أن يشترى منه جريدة. كان شكل الجريدة غريبًا بالفعل.. فهى صغيرة جدًا.. لا تتجاوز الصفحتين.. وطباعتها رديئة.. ولكنها على أى حال رخيصة السعر.. وتحمل من الأخبار الجديدة ما لا تحمله الجرائد الأخرى.

وكان «كمسارى» القطار يراقب الصبى.. لاحظ أولا شكـل هذه الجريدة الغريبة.. ثم لاحظ أنه كلما نفدت الكميات التى يحملها غاب قليلًا فى العربة الأخيرة ثم عاد وهو يحمل كميات أخرى.. والأغرب من ذلك.. فقد لاحظ أن عناوين الجريدة والأخبار الهامة فيها تتغير من محطة إلى أخرى.. ما هذا؟.

كان يعرف الصبى معرفة جيدة.. فهو «توماس الفا إديسون» وكان الجميع ينادونه «توم» كان يسكن فى مدينة «بورث هورن» ويقوم برحلة يومية فى القطار لكى يحضر الخضراوات الطازجة من مدينة «دترويت» ليبيعها فى مدينته.. ثم بدأ يبيع الجرائد المعروفة.. وأخيرًا بدأ يبيع هذه الجريدة الغريبة.

وانتظر «الكمسارى» حتى انتهى الصبى من آخر دفعة كانت بيده.. ووقف على الباب المؤدى للعربة الأخيرة.. وعندما حاول الصبى أن يمر بجانبه أمسك بياقة قميصه وهو يقول له: إلى أين تذهب؟.

قال الصبى: إلى العرب الأخيرة يا سيدى المحصل حيث أحتفظ ببضائعى.

قال الكمسارى وهو يشير إلى الركاب المنهمكين فى القراءة وما هذه الجريدة الغريبة التى تبيعها؟

قال «توم»: لا شىء.. إنها جريدة مثل غيرها من الجرائد.

ولكن الكمسارى كان مصممًا على تقصى الحقيقة.. فضغط على ياقة القميص وهو يقول: لابد أن أعرف سرها.. وإلا لن أسمح لك بركوب القطار مرة أخرى.

وأمام هذا التهديد لم يملك «توم» إلا أن يقول فى طاعة: إذن.. اتبعنى إلى عربة البضائع يا سيدى.

وسار الكمسارى خلفه.. تذكر أنه لم يذهب إلى هذه العربة منذ زمن بعيد.. وعندما دخلها فوجىء بما يراه أمامه.. كانت العربة مزدحمة بالعديد من الأشياء.. فجدرانها قد أقيمت عليها الأرفف.. وتراصت فوقها العديد

من الزجاجات التى تحتوى على المواد الكيمائية.. وفى جانب العربة.. كانت هناك أدوات زجاجية.. أنابيب.. وبواتق وقوارير مختلفة.. أما فى الركن الثانى فكانت أقفاص الخضار المختلفة.. ولكن فى وسط العربة كانت هناك أغرب الأشياء.. كانت هناك مطبعة.

أجل.. مطبعة صغيرة.. ما زالت ملوثة بالحبر مما يدل على أنها كانت تعمل.. وبجانبهما كانت هناك نسخة من الجريدة التى كان يبيعها «إديسون» فى القطار.. وهتف الكمسارى فى ذهول:

– كل هذا فى عربة البضائع.

وارتبك «إديسون» ولم يدر كيف يصف للكمسارى كيف تسللت هذه الأشياء إلى داخل العربة وقال:

– إننى أحاول تسلية نفسى فى القطار يا سيدى الكمسارى.

وتناول الرجل الجريدة وألقى نظرة عليها وهو يقول:

– وتطبع الجريدة داخل القطار.. من الذى يكتبها.

قال «توم»: أنا الذى أكتبها.. وأنا الذى أطبعها وأوزعها أيضًا.. إننى أهبط فى كل محطة وأذهب مسرعًا إلى مكتب البرقيات لأعرف آخر أخبار الحرب ثم أعود مسرعًا وأضيفها إلى جريدتى.. لذلك فهى جريدة دائمة التغير يا سيدى.

ونظر الكمسارى إلى الأرفف المتراصة وهو يقول: وما كل هذه الزجاجات؟

وتردد «إديسون» قليلا ثم قال: إنها.. إنها بعض المواد الكيماوية يا سيدى.. انظر يا سيدى.. إننى شغوف بالكيمياء وأحب أن أقوم ببعض التجارب.. إننى أقوم بتوزيع الجرائد وبيع الخضراوات فقط حتى أستطيع

أن أوفر ثمن هذه المواد يا سيدى.

وتردد الكمسارى ثم قال: ولكن هذا خطر على القطار.

وأسرع «إديسون» يقول: كلا يا سيدى.. إننى لا أقوم بأى تجارب خطرة.. لقد أجريت بعض التجارب على حبر المطبعة.. ولم تعد الجريدة تستهلك إلا نصف الحبر فقط.. وأريد أن أقوم بتجربة أخرى لأثبت الحبر حتى لا يخرج فى أيدى القراء.. وهكذا.

وصمت الكمسارى قليلاً ثم قال: أنت ولد غريب بالفعل.. لم أتصور أنك يمكن أن تصنع بعربة البضائع كل هذه الأشياء.

ووقف «إديسون» صامتًا.. كان يخشى أن يتخذ الكمسارى قرارًا بطرده.. ولكن الكمسارى شعر بداخله بإعجاب نحو هذا الفتى العبقرى.. وهتف به:

- سوف أتركك فى القطار.. ولكن كن حذرًا.

وابتسم «إديسون» فى سعادة بالغة. وشكر الكمسارى الذى تركه يواصل أبحاثه وعاد يفتش على تذاكر الركاب.

وأخذ «إديسون» يواصل طبع آخر طبعة من جريدته.. كان طفلا غريبًا.. يفكر فى كل شىء.. ويسأل عن كل شىء.. وعندما كان فى المدرسة أخذ يلقى على معلمته العديد من الأسئلة التى لم تجد إجابة عليها.. فقالت عنه إنه طفل غير طبيعى.. ولكن أمه أخرجته من المدرسة وأخذت تواصل تعليمه بنفسها لكى تثبت أن ابنها يتمتع بنوع من الذكاء غير العادى.

وفجأة.. وبينما كان «إديسون» منهمكًا فى طباعة جريدته.. دخل

القطار فى أحد المنحنيات الخطرة ومالت العربات بشدة.. وأمسك «إديسون» بالمطبعة لكى يحميها من السقوط.. ولكن قطعة من «الفسفور» سقطت من أحد الزجاجات.. قبل أن ينتبه «إديسون» لما حدث، كانت النيران قد اشتعلت فى أعداد الجريدة التى انتهى فى التو من طباعتها.. وعبثًا حاول «إديسون» أن يطفىء النار.. وارتفعت من العربة أعمدة الدخان.. وانطلقت صفارات الإنذار من حجرة المراقبة.. وتوقف القطار.. وأسرع السائق والكمسارى يحملان الماء.. وفوجئا «بإديسون» الصغير وهو يحاول أن ينقل أمتعته.. ولم يتمالك الكمسارى نفسه من الغيظ فصرخ فيه:

– ألم أحذرك من حرق القطار.

وأخذ فى حنق يلقى بأمتعة «إديسون» خارجًا.. وهوت الزجاجات متكسرة على الأرض، وتناثرت الخضراوات.. والكتب.. ولم يبق سليمًا إلا المطبعة.. ووقف «إديسون» بجانبها حزينًا وهو يرقب القطار وهو يمضى بدونه.

من هذه اللحظة قد أدرك «إديسون» أهمية أن يكون له معمله الخاص. وقد ظفر فيما بعد بأكبر معمل فى تاريخ الولايات المتحدة استطاع بواسطته أن يخترع أكثر من ألفين وخمسمائة اختراع.. فقد طور نظام البرقيات.. واخترع أجهزة التسجيل.. ولكن أعظم اختراعه بلاشك هو المصباح الكهربائى الذى حول ليل العالم إلى نور ساطع وطور الحضارة الإنسانية.. كما مهد لاختراع أجهزة التصوير.. والسينما.. والتليفزيون.. وساهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى فى تحضير المنتجات الكيمائية التى كانت بلاده فى حاجة إليها وبرزت عبقريته فى كل مجال من المجالات.

فلورانس.. حاملة المصباح..

استيقظت «فلورانس» على الضجة القادمة من حديقة المنزل. خيل إليها أنها سمعت صوت إنسان يصرخ. ثم صوت صفارة ضعيفة. كانت غرفتها هي أقرب الغرفات إلى الحديقة.. نهضت من فراشها وأمسكت المصباح فى يدها ثم سارت إلى الحديقة.

كان الظلام كثيفًا. والليلة هى إحدى ليالى الشتاء التى يخيم فيها الضباب على «لندن» ولكن «فلورانس» سمعت صوت شخص وهو يتأوه. أدارت مصباحها إلى مصدر الصوت فوجدت أحد رجال الشرطة ملقى على الأرض. كان يتألم وهو يمسك ساقه. وأسرعت «فلورانس» وهى تهتف:

– ماذا بك يا سيدى؟.

نظر الشرطى إليها ثم قال وهو يتأوه: أوه يا آنستى الصغيرة.. لقد حاول اللصوص أن يسرقوا منزلكم ولكننى كشفت أمرهم.. لقد أصابونى فى ساقى ولاذوا بالفرار.. وضاعت الصفارة منى.

قالت «فلورانس».. سوف أعتنى بك فى الحال.. ولكن أولا علىّ أن أوقظ أبى وبقية الخدم.. وأسرعت إلى المنزل. أيقظت الجميع. وهبط أبوها

معها مهرولا إلى الحديقة. واستطاعوا أن ينقلوا الشرطى المصاب إلى داخل المنزل وأجلسوه فوق إحدى الأرائك.. كان الدم ينزف من ساق الشرطى.. وهتف الأب:

- سوف أذهب لاستدعاء طبيب.

ولبس قبعته ومعطفه واتجه إلى الباب فى حين قالت «فلورانس»:

- سوف أحاول أن أقدم له بعض الإسعافات حتى يتوقف النزيف.

وأسرعت لتحضر قطعة من القماش وبعض المطهرات.. ولاحظت الأم فى دهشة كيف تتصرف «فلورانس» فى ثقة.. تقوم بتنظيف جرح الشرطى ثم تطوى قطعة القماش لتجعل منها ضمادة مناسبة ثم تلفها وتربطها بطريقة معينة وقالت الأم فى دهشة:

- «فلورانس».. أين تعلمت هذه الأشياء؟

قالت «فلورانس» وهى تواصل عملها:

- فى المدرسة يا أمى.. إنهم يعطوننا دروسًا فى الإسعافات الأولية.

وراقبها الشرطى وقد بدأ يسترد قواه بعد أن توقف الدم ورفع قبعته وهو يقول لها:

- شكرًا يا آنستى.. سوف تكونين ممرضة رائعة.

وابتسمت «فلورانس». ولكن الأم قابلت هذه المجاملة بامتعاض.. ممرضة.. يا لها من مهنة صغيرة لا تليق إلا ببنات الأسر الحقيرة.. ألا يعرف هذا الشرطى أن «فلورانس» من أسرة عريقة لا يمكن لها أن تعمل بهذه المهنة.

ودخل الأب من باب البيت وهو يقول:

- لم أجد الدكتور جريدلى فى منزله.. أخبرنى الخادم أنه سافر إلى

خارج لندن لعدة أيام.

واعتدل الشرطى فى جلسته وحاول أن يضع قدميه على الأرض وهو يقول:

– لا أهمية لذلك يا سيدى.. لقد قامت الآنسة الصغيرة بعمل الطبيب فى براعة شديدة.

ولكن الأب لاحظ بعض علامات الألم التى مازالت موجودة فوق وجه الشرطى وسأله:

– ألا تريد أن تذهب إلى إحدى المستشفيات.

ولكن الشرطى قال فى رعب:

– أوه.. كلا.. كلا يا سيدى. إن المستشفيات العامة رهيبة ويمكن أن أموت فيها من قلة العناية.. إننى أفضل هكذا.. سوف أذهب إلى قسم الشرطة لأخبرهم بأوصاف اللصوص حتى يمكن القبض عليهم. شكرًا لك يا سيدى. شكرًا لك يا آنستى الصغيرة.

وانصرف الشرطى وعادت «فلورانس» إلى غرفتها.. لم تستطع النوم. كانت تفكر فى الشرطى الجريح وكيف أصابه الفزع عندما ذكر أبوها كلمة المستشفى أمامه.. كانت «فلورانس» قد أدركت فجأة مزايا هذه المهنة التى امتعضت أمها عندما ذكرها الشرطى.. ممرضة.. أجل.. ممرضة.. تخفف الآلام.. وتنقذ حياة المرضى وتساعد الأطباء على أداء أعمالهم. لقد كان الشرطى متألمًا.. ينزف.. ولكنه استرد عافيته بعد أن قدمت له بعض الإسعافات التى تعلمتها فى المدرسة.. ونامت «فلورانس» وهى تحلم بهذه المهنة.. مهنة التمريض.

وبعد أيام من هذا الحادث عاد الدكتور صموئيل جريدلى من سفره..

كان صديقًا لأبي «فلورانس». وكانت هي تحب أن تجلس إليه كثيرًا لتستمع إليه. فقد كان الطبيب أمريكي الأصل ويعيش في لندن ويملك العديد من القصص الشائقة عن بلاده البعيدة أمريكا. ولكنها هذه المرة هي التي كانت تتكلم.. أخذت تقص عليه حكاية الشرطي الجريح. وفجأة سألته:

– ولكن.. يا دكتور.. لماذا أصيب الشرطي بالفزع هكذا حين اقترحنا عليه أن يذهب إلى المستشفى.

قال الدكتور صموئيل:

– لأن المستشفيات في حالة سيئة بالفعل ومزدحمة بالمرضى إلى حد كبير.

وفوجئت الأسرة كلها «بفلورانس» وهي تسأله:

– هل يمكن أن أزور المستشفى؟

واعترضت الأم في تأفف قائلة:

– أوه يا عزيزتي.. هذه أماكن لا تزورها فتاة من الطبقة الراقية.

ولكن «فلورانس» قالت في إصرار:

– يجب أن أزور المستشفى يا أمي.. يجب أن أعرف حالتها على الطبيعة.. إنني مهتمة بهذا الموضوع.

وأمام إصرارها لم يستطع الجميع إلا الموافقة. كانت المستشفى التي ذهبا إليها بشعة بالفعل. طرقاتها قذرة. مليئة بالقاذورات وفضلات الأطعمة. والمرضى ينامون على أسرة متسخة. ويعانون من سوء الخدمة من قلة الطعام والأدوية. كان هناك الكثير من المرضى والقليل من الأطباء والممرضات. وكانت المستشفى كلها في حالة يرثى لها.. وقال لها

– إنها مأساة يا عزيزتى، فنحن لا نجد ممرضات متدربات يساعدن فى القيام بالعمل. كل الفتيات يهربْن من هذه المهنة. والمستشفيات فى تدهور مستمر. ولسنا ندرى ماذا نفعل لكى نخفف من آلام هؤلاء المرضى؟.

ولم تذهب «فلورانس» لزيارة هذه المستشفى وحدها. ولكنها ذهبت إلى العديد من المستشفيات. وملاجىء اليتامى وبيوت الفقراء ومنازل العجزة. وأدركت «فلورانس» أن كل هذه الأماكن فى حاجة لمن تضحى بنفسها.. وبحياتها من أجل خدمة الآخرين.. وعادت إلى بيتها فى أحد الأيام بعد أن اتخذت قرارها وقالت لأمها:

– أماه.. أريد أن أكون ممرضة.

وهتفت الأم فى جزع:

– كلام فارغ.. أنت فتاة من طبقة راقية.. كل ما عليك هو تعلم العزف على البيانو.. والرقص والتطريز.

ولكن «فلورانس» كانت مصممة ألاّ تبقى إنسانة خاملة. كل ميزاتها أنها ثرية. وبرغم الاعتراضات كانت مصرة على أن تشق طريقها فى ميدان التمريض. وأخذت تقرأ بعناية وتهم كل ما يقع تحت يديها من كتب طبية. وتبحث عن أفضل الطرق التى تحسن بها مستوى المهنة. وسافرت إلى ألمانيا حيث تعلمت التمريض فى أحد المعاهد المتخصصة. وأصبحت بذلك أول ممرضة مثقفة ومن طبقة راقية تحاول أن تعيد البسمة إلى شفاه المرضى.

لقد سخر الجميع منها. ومن مهنتها. ولكن أمام إصرارها بدأت تنجح..

وبدأ الكثيرات من بنات الطبقة الراقية فى الانضمام إليها وساعدتها.. وحين نشبت حرب القرم بين روسيا وإنجلترا وفرنسا. وسمعت «فلورانس» عن سوء أحوال جرحى الحرب وكيف يموتون بسبب نقص العناية الطبية. أخذت معها ٣٥ ممرضة من الفتيات المتدربات جيدًا وسافرت إلى ميدان القتال. وهناك بدأت تقوم بدورها الإنسانى العظيم. كانت تسهر طوال الليل. تحمل المصباح وتسير بين خيام الجرحى. وتقدم المساعدة والعناية لكل الذين يحتاجون إليها. وقد أحبها الجنود وأطلقوا عليها اسم «حاملة المصباح».. وقد اشتهرت بهذا اللقب.. وظلت تكافح من أجل المزيد من الأدوية الضرورية.. والآلات الجراحية.. وعندما عادت نالت أعلى الأوسمة والشهادات التقديرية. وأنشأت بجهودها الخاص أول معهد لتدريب الممرضات على أحدث الطرق وما زالت آثار «فلورانس نايتنجل» باقية حتى اليوم مع كل لمسة تقدمها ممرضة إلى مريض.. لقد حملت «فلورانس» مصباح الرحمة الإنسانية وساهمت فى تخفيف آلام المرضى وأعادت البسمة إلى شفاههم.

«ليو».. والشيء الأثمن من الذهب

صهل الحصان بصوت عال وضرب الأرض بقوائمه. وبسرعة ضربه الأب بالسوط ثم جذب العنان بقوة. وقال لابنه «ليو» الجالس بجانبه فوق العربة:

- أووه.. لست أدرى ماذا أصاب هذا الحصان.. لقد كان هادئًا.. أما اليوم فهو عصبى إلى حد كبير.

وواصل الأب شد العنان.. وضرب الجواد ضربات خفيفة حتى هدأ الحصان وواصل السير. كان الأب فارسًا بارعًا وتمنى «ليو» أن يكبر ويصبح فارسًا بارعًا مثله.

كانت العربة تسير فى طريق ضيق، على جانبيه أشجار عالية. ومن خلفها تمتد الحقول الواسعة على مدى البصر وهتف الأب وهو يشير بيده:

- انظر «ياليو» هذه الأراضى كلها ملكنا.. بما عليها من بيوت.. وحيوانات.. ونفوس بشرية.

قال «ليو» فى دهشة.. نفوس بشرية؟.

قال الأب: بالطبع.. هؤلاء الفلاحون الذين يعملون فى الأرض.. إنهم.. وزوجاتهم وأولادهم جميعًا عبيد لنا.. يورثون من أب إلى ابنه..

ويمكن أن يبيعهم السيد إلى سيد آخر.

وظل «ليو» مدهوشًا وهو يقول: كل هؤلاء الناس..؟

قال الأب: طبعًا.. كل الفلاحين فى روسيا هم عبيد يملكهم السيد صاحب الأرض.

قال «ليو» وقد تحركت فى قلبه مشاعر غريبة: ولكن.. ألا يشعرون بالحزن يا أبى.. إنهم بذلك أشبه بالحيوانات.. الا يريدون الحرية؟.

قال الأب وهو يضرب الحصان بالسوط مرة أخرى: كلام فارغ.. العبيد لا يفكرون إلا فى الطعام.. والمال.. ولا يخافون إلا من الضرب بالسياط.. إنهم لا يعرفون حتى ماذا تعنى كلمة الحرية.. ولا قيمتها.

وواصلت العربة سيرها.. كان الكونت تولستوى - أبو «ليو» - يملك أرضًا واسعة.. وكان الفلاحون منتشرين فيها لا يكفون عن العمل، يحرثون. ويبذرون. ويحصدون.. وفكر «ليو» فى نفسه.

«يا إلهى.. سوف أصبح مالكًا لكل هؤلاء الناس.. كيف يمتلك الإنسان إنسانًا مثله..».. كان «ليو» لا يقيم فى الريف طويلا.. ولكنه يتلقى تعليمه فى إحدى المدارس الداخلية فى بطرسبرج العاصمة الكبيرة. كان أبوه يريده أن يصبح ضابطًا عسكريًا مثله.. ولكن «ليو» برغم جسده المتين البنيان. وقامته العملاقة كان يمتلك قلبًا رقيقًا. يهوى قراءة الشعر. والحكايات. والأغانى الحزينة.. كان يتساءل دائمًا.. عن معنى السعادة.. والشقاء.. والحب.. والموت.. وكان أبوه يريده عسكريًا صلبًا.. يرث الأرض. ويحكم العبيد. ويخوض المعارك.. ولكن «ليو» كان يجلس فى الليالى الطويلة ويكتب الكثير من الكلمات لعله يعرف الإجابة عن الأسئلة التى تورقه.

توقفت العربة. وقفز الأب إلى الأرض. وأشار إلى «ليو» ألا يقفز حتى لا يتسخ حذاؤه بالطين. وأقبل عليهم أحد الفلاحين مسرعًا.. كان فلاحًا شابًا.. قويًا إلى حد كبير.. ولكنه يلبس ملابس رثة ملوثة بطين الأرض. وانحنى مرة أمام الأب.. ومرة أخرى أمام «ليو» وهو يقول:

– مرحبًا بك يا سيدى الكونت.. ومرحبًا بك يا سيدى الصغير.. إنه لشرف لنا أن تمروا لرؤيتنا نحن الفلاحين المساكين.

وضع الأب يده فى خاصرته.. وهز سوطه فى الهواء وقال فى تعال للفلاح:

– ماذا تبذرون اليوم؟.

قال الفلاح فى خضوع: نحن نبذر قمحًا يا سيدى الكونت.

قال الأب فى التعالى نفسه: فى العام الماضى لم يكن المحصول جيدًا.. ولو استمر الحال هكذا فسوف أجلدكم جميعًا بالسياط.

وقال الفلاح فى تذلل: أواه يا سيدى كن رحيمًا بنا.. لقد كان الشتاء قاسيًا علينا وعلى المحصول.

وأحس «ليو» بالخجل من قسوة أبيه. ولكنه لم يتكلم.. كان الحصان هو الذى صهل فجأة كأنه يعلن احتجاجه. وضرب الأرض بقوائمه. وقبل أن يتمكن الأب من الإمساك بالعنان انطلق الحصان يجرى بسرعة مجنونة.. وهتف الأب: أسرع بالقفز من العربة «يا ليو».

ولكن العربة كانت مسرعة. والطريق ضيقة.. ولو حاول القفز فسوف يصطدم بهذه الأشجار.. ووقف «ليو» حائرًا.. كان العنان بعيدًا عن متناول يديه.. ماذا يفعل.. تجمد «ليو» من الرعب والعربة تنطلق به إلى مصيرها المحتوم.

والتفت «ليو» إلى الوراء بحثًا عن أي مساعدة.. وشاهد الفلاح الذي كان يحدثهم.. كان يعدو خلف العربة.. ولكن الحصان كان مسرعًا. والعربة تهتز. وتصطدم بأحجار الطريق وتوشك أن تنقلب. ولكن الفلاح واصل الجري بقوة.. قدماه عاريتان. تغوصان فى الطين. وكان يواصل الاقتراب.. أجل.. كان يقترب من العربة.. ومن «ليو».. وجهه ممتلىء بالعرق.. ولكنه يندفع حتى أصبح فى موازاته تقريبًا.. وهتف به:

- تشجع يا سيدى.

واستمر يجرى حتى أصبح فى موازاة الحصان.. ومد يده وأخذ يحاول الإمساك بالعنان من المقدمة بحيث يعوق حركة الحصان.. ولكنه ما إن أمسك هذه الأعنة حتى حرك الحصان رقبته فى عنف جعلت الفلاح يفقد توازنه.. ولكنه لم يسقط. ظلت يده قابضة. والعربة تجره على الأرض. وشاهده «ليو» وهو يقاوم السقوط.. كان قويًا بدرجة كبيرة وعبثًا حاول الحصان التخلص من قبضته.

واضطر الحصان إلى أن يقلل من سرعته شيئًا فشيئًا. واستعاد الفلاح توازنه.. وقبض بقوة على الأعنة حتى توقف الحصان نهائيًا.. واسترد «ليو» أنفاسه أخيرًا.

قفز «ليو» من العربة.. كان الفلاح قد جلس على الأرض وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة. وبرغم ذلك كان قابضًا على الأعنة. وتأمله.. كانت قدماه داميتين. وملابسه ممزقة لأن الحصان قد جره على الأرض مسافة طويلة.. وكذلك يداه هناك خيط من الدم ينسال من بين أصابعه.. وقال «ليو» فى هلع:

- إنك مصاب.. إنك ملىء بالجروح.. فى ساقيك وقدميك ويديك..

ولكن الفلاح قال فى بساطة: أنا بخير يا سيدى.. إنه لا شيء.. المهم أنك فى خير وسلام.

وأقبل الكونت تولستوى وهو يعدو لاهثًا.. واحتضن «ليو» وهو يهتف: ابنى الحبيب.. حمدًا لله على سلامتك.

وابتسم «ليو» وهو يحتضن أباه: أنا بخير يا أبى.. لقد أنقذ هذا الفلاح الطيب حياتى.

والتفت الأب نحو الفلاح بوجه مختلف. خال من القسوة. ومن التعالى. وهتف: كيف أشكرك أيها الفلاح الطيب.. أطلب ما تريد مكافأة لك.. هل تريد ذهبًا..

قال الفلاح فى هدوء: كلا يا سيدى الكونت وأشكرك كثيرًا.

قال الأب: كلا.. يجب أن تطلب شيئًا.. هل تريد أن تمتلك أرضًا.. قال الفلاح بالهدوء نفسه: كلا يا سيدى لا أريد أرضًا.

قال الأب: يجب أن تطلب.. هل تريد بيتًا يحميك من ثلج الشتاء.

وكان رد الفلاح: كلا يا سيدى الكونت وأشكرك كثيرًا.

هتف الأب: ماذا تريد إذن.. لابد أن تطلب شيئًا.

سكت الفلاح قليلا. وبرقت عيناه. وقال فى حرارة: أريد حريتى أيها السيد.. أريد الحرية.

إن «ليو» الذى كبر فيما بعد وأصبح «الكونت ليو تولستوى» لم ينس هذا الفلاح أبدًا.. ولم ينس هذه الكلمات الحارة. لقد أصبح واحدًا من أشهر أدباء العالم. ولكنه كان يعرف أنه مدين بحياته لهذا الفلاح فكتب عنه وعن بقية الفلاحين كثيرًا.. وطالب لهم بالعدل وبحقهم فى الحرية

والمساواة وطبق هذا على نفسه فحرر كل الفلاحين الذين يملكهم من العبودية ووزع عليهم الأرض وعندما ثار عليه المجتمع لم يتراجع وظل يدافع عن آرائه ويطالب برفع الظلم عن كل الفلاحين الذين يزرعون للجميع ولا يحصدون شيئًا لأنفسهم. وقد تحققت مطالب «ليوتولستوى» بعد موته وألغيت العبودية من روسيا كلها. وأصبح الفلاحون أحرارًا ولم ينس أحد منهم «تولستوى».. كاتب «الحرب والسلام» «والبعث» «وأنا كارتينا» وغيرها من الأعمال الأدبية والإنسانية العظيمة.. ولم ينس هو أبدًا ذلك الفلاح الذى علمه أن الحرية هى أثمن من كل شىء.

ماری تقوم بأولى تجاربها

دخلت «ماری» من باب المعمل وهی تصيح فی فرح.. وكان كارل ابن عمها فی انتظارها.. لم يكن يريد أن يبدأ التجارب قبل حضورها.. وكانت هذه هی المرة الأولى التی تحضر فيها متأخرة.. وقبل أن يسألها عن سبب التأخير صاحت به:

– كارل.. أتعرف ماذا حدث اليوم.. لقد كان السيد «مندليف» فی زيارتنا..

وخلع كارل نظارته ونسی تجاربه وهتف فی دهشة:

– ماذا.. «مندليف» العالم الكيمائی الروسی.. لا أصدق.. هل هو هنا.. فی بولندا.

قالت «ماری» فی سعادة: أجل.. إنه صديق أبی.. وقد تناول الغذاء معنا اليوم.. لقد دهش من معلوماتی عن الكيمياء وعن مدى فهمی للجدول الذی ابتدعه.. قال لی.. إننی صغيرة السن حقاً ومع ذلك فلدی معلومات كثيرة.. أوه.. إنه رجل مدهش.. أتدری ماذا قال لی أيضاً.. لقد نظر إلیّ بعمق ثم قال:

ونفخت «ماری» صدرها كأنها تقلد «مندليف» وقالت فی صوت

غليظ: آنسة «ماري».. سوف يكون لك مستقبل رائع في الكيمياء.

وضحك كارل من منظرها وهي تقلد «مندليف».. وضحكت هي أيضًا.. وفردت الورقة التي كانت في يديها وهي تقول: انظر ماذا أهداني.. إنه الجدول الجديد الذي أعده لترتيب العناصر.. كل عناصر الكيمياء موضوعة هنا حسب ترتيبها الذري.. وهناك.. في هذه الخانة عنصر ناقص لم يكتشف بعد.. لقد تنبأ «مندليف» بوجوده ولكن حتى الآن لم يكتشفه أحد.

وكان كارل سعيدًا بسعادتها فقد كانت طفلة رائعة. حادة الذكاء ولكنه هتف بها: أوه «يا ماري» كفي حديثًا عن عالمك المشهور.. لقد جئت لمساعدتي وليس لتعطيلي.. هيا إن الشركة تريد أن أحضر لها الأصباغ التي تريدها بأسرع ما يمكن.

قالت «ماري»: وماذا سأفعل أنا؟.

قال كارل: وقد بدأ يحضر الأدوات للبدء في التجارب: كالمعتاد سوف تقومين بتنظيف الأنابيب والبواتق وتحضرين المحاليل التي أطلبها.

وقالت «ماري» في غيظ: أوه.. كلا.. أنت تخدعني يا كارل.. كل مرة تكلفني بتنظيف الأجهزة وتقوم أنت بإجراء التجارب وحدك.. هذا ليس عدلا.

وضحك كارل وهو يسير في المعمل ويقف أمام أجهزة التقطير وهو يقول:

- أنت ما تزالين صغيرة «يا ماري».. وممارسة الكيمياء أمر صعب.

ودقت «ماري» الأرض بقدميها غاضبة وهتفت:

– كلا.. أنا لست صغيرة.. «مندليف» نفسه قال إننى.

وقاطعها كارل قائلا:

– سوف يكون لك مستقبل عظيم.. ولكن المستقبل مازال بعيدًا «يا مارى».. وعليك أن تبدئى من أول الطريق.

وهمهمت «مارى» وهى تتناول بوتقة زجاجية:

– أى من أول غسل الأوانى والأنابيب.. أوه.. متى يأتى ذلك المستقبل البعيد. وضحك كارل. وبدءا العمل. كان كارل يكبرها بأكثر من خمس وعشرين عامًا. ولكنه كان معجبًا بذكائها الكبير وفهمها للعديد من التفاعلات الكيميائية المعقدة. فقد كانت تراقبه باستمرار. وتقرأ كل ما يقع تحت يديها من كتب. وقد أكتسبت خبرة كبيرة ولكنها فقط.. كانت تود لو أن ابن عمها يسمح لها بإجراء بعض التجارب الصغيرة.. ولكنه دائمًا يقول لها إنها صغيرة.. صغيرة.

أخذت تغسل الأوانى وتراقبه بطرف عينها.. كان يحضر المواد ويضيفها بعضها إلى بعض بنسب معينة.. ثم يبدأ فى التسخين.. ولكن «مارى» قالت فى تأفف:

– أوه يا كارل.. أنت بطىء جدًا.. وتقوم بالعديد من الخطوات الزائدة لماذا لا تختصر هذه الخطوات وتوفر بعض المواد.

وأصدر كارل صوتًا من فمه يأمرها بالصمت. كان مشغولا حتى عن الرد عليها. وصمتت «مارى». وجلست تراقبه ثم عادت تقول بعد دقائق:

– أوه يا كارل.. يمكن أن تكون الصبغة أفضل لو مزجت المحلولين معًا قبل تسخينها.

وقال كارل فى غيظ: لقد قمت بهذه التجربة عشرات المرات ولن تأتى طفلة لتعدل علىّ..

وضربت «مارى» الأرض بقدميها وهى تقول: أوه.. إننى لست طفلة.. لقد تنبأ «مندليف» بمستقبلى.

وصمتت لأنها أحست أن ابن عمها مغتاظ من طريقتها فى المقاطعة.. ولكنها لم تستطع أن تبقى على هذا الصمت طويلا فأخذت تقول: زد من درجة الحرارة يا كارل حتى تصبح الصبغة ثقيلة.

ولم يطق كارل صبرًا. ولكنه بدلا من أن يثور عليها وضع يده فى خاصرته وهو يقول: حسنًا «يا مارى».. مادمت لا ترين أن تتركينى فى حالى.. خذى.. هذه عينة من المواد التى أستعملها وقفى فى الطرف الآخر من المنضدة واصنعيها كما تريدين.

وفوجئت «مارى» بنوبة الكرم التى هبطت على ابن عمها.. لم تصدق أنه تنازل أخيرًا وترك لها بعض المواد التى يستعملها.. ولكن الأمر كان حقيقة.. بدأ يرص لها المواد.. كميات صغيرة حقًا ولكنها كافية.. تستطيع من خلالها أن تؤكد قدرتها وذكاءها.

بدأت «مارى» العمل فى سرعة.. كانت تضيف المواد.. وتسخن.. ثم تضعها فى جهاز التقطير. وتراقب الناتج. ثم تنتقل إلى الخطوة التى بعدها. كانت تريد أن تسبق كارل بأى طريقة. تريد أن تثبت له أنها لا تقل عنه براعة.

ونظرت من طرف عينيها إليه. وجدت أن الصبغة عند كارل قد بدأت فى التكون. وأرادت هى أن تختصر عدة خطوات فى خطوة واحدة. ووضعت البوتقة فوق النار وأخذت تعد لإحضار مزيج آخر من المحاليل.

وفجأة انفجرت البوتقة. وأسرع كارل فى فزع يأخذ «ماري» بعيدًا ويطفىء مصباح اللهب. وكان وجه «ماري» شاحبًا. قد أتلفت البوتقة الكثير من الأشياء التى حولها.. وهتف كارل:

– أوه «يا ماري».. لقد أتلفت كل شيء.

وقالت «ماري» فى حزن: كنت أريد أن أساعدك يا عزيزى كارل.. سوف أقوم بتنظيف كل شيء.

وأمسكت المكنسة وأخذت تزيل بقايا الزجاج. ولكنها فجأة شاهدت البوتقة التى انكسرت. كان قد تكون فى قاعها لون جديد. لون غريب لم تره من قبل وهتفت «ماري»:

– كارل.. انظر إلى هذه الصبغة الجديدة.

ووضعت البوتقة المكسورة أمام كارل الذى تأملها فى دهشة ثم مد ساقًا زجاجية وتناول بواسطته بعضًا من المسحوق. كان لونا غريبًا حقًا. جديدًا. لم ينتج من قبل. وأخذ كارل يجرى عليه بعض تجارب الاستكشاف ثم هتف فى دهشة: إنه لون رائع «يا ماري».. فهو يصبغ الأقمشة جيدًا ولا يزول بالماء.. لقد نجحت «يا ماري».. نجحت.. هيا ساعديني فى تركيب هذا اللون مرة أخرى:

وأزاحت «ماري» الزجاج بسرعة. ووقفت بجانب كارل وأخذا يعملان بنشاط. كانت هى التى ترشده هذه المرة وبدأت تحس بالسعادة وتذكرت كلمات «مندليف». وقالت لكارل وعيناها تلمعان:

– أتعرف يا كارل فيما أفكر الآن.

قال كارل: ماذا يا عزيزتى.

قالت «ماري»: عندما أكبر سوف أصبح كيمائية شهيرة وأكتشف

العنصر الناقص فى جدول «مندليف». وكبرت «مارى». وأصبحت كيمائية كبيرة. وتزوجت من كيمائى آخر هو «كورى» واكتشفا معًا العنصر الناقص فى الجدول وأطلقت عليه «بولوتيوم» تخليدًا لاسم بلدها بولندا وحصلا معًا على جائزة نوبل للمرة الأولى.. ومات زوجها ولكنها واصلت الأبحاث وحدها واستطاعت أن تفصل عنصر الراديوم الذى أصبح يستخدم فى الطب والصناعة ونالت جائزة نوبل للمرة الثانية. وأصبحت «مارى كورى» أو كما اشتهرت «مدام كورى» واحدة من أشهر العلماء فى العالم وقدمت للإنسانية العديد من الخدمات من خلال اكتشافاتها.

غاندى يطرد الثعابين

كانا فى وسط الحقول.. عندما صرخت الأم فى صوت فزع:

- آه ساقى.. ساقى.. لدغنى ثعبان.

ونظر الابن الصغير «غاندى» فى فزع. خيل له أنه يلمح شيئًا وهو يمرق مسرعًا بين الحشائش. وأمسكت الأم ساقها ثم هوت على الأرض. وظهر بوضوح آثار نقطتين دمويتين صغيرتين فصرخ «غاندى»:

- النجدة.. النجدة.. ثعبان لدغ أمى.

كان هناك فلاحون على مبعدة يحاولون سقى الأرض من ماء النهر.. لم يسمعوه. وقالت الأم:

- لا يوجد وقت يا بنى.. هيا.. انزع ذلك الحبل الموجود حول وسطك واربطه حول ساقى.. فوق الإصابة مباشرة.

وأسرع «غاندى» يعقد الحبل حيث أشارت الأم. كانت تتأوه فى ألم ولكنها أخذت ترشده قائلة:

- هيا.. اجذب جيدًا.. بكل قوتك. اربط بشدة.. يجب أن تمنع الدم من المرور من الجزء المصاب.. حتى لا ينتشر السم فى بقية الجسم.. يا إلهى.. اربط «يا غاندى».. اربط.. وجذب «غاندى» الحبل بكل قوته

حتى خيل له أنه يغوص فى لحم الأم. وتمكن أخيرًا من ربطه بالطريقة الصحيحة. وحاولت الأم بعد ذلك أن ترفع رأسها وتقوس جسدها حتى تصل بواسطة فمها إلى موضع الإصابة ولكنها لم تتمكن من ذلك.. كانت تلهث وتلتقط أنفاسها فى صعوبة..

وهتف «غاندى» فى حيرة: ماذا تريدين أن تفعلى يا أمى؟.

قالت الأم وهى مازالت تحاول: يجب أن أصل إلى موضع اللدغة وأمتص السم من الساق ثم أبصقه على الأرض..

قال «غاندى»: لم تقدرى ذلك يا أمى.. دعينى أحاول.

قالت الأم فى خوف وألم: كلا.. كلا.. أنت مازلت صغيرًا وقد تخطىء وتبتلع السم. لن أسمح لك بذلك..

قال «غاندى» فى توسل: دعينى أحاول يا أمى أرجوك.. سوف أكون حذرًا ولن أبلع قطرة واحدة..

وأمام إلحاح «غاندى». ولأنه لم يكن هناك حل آخر. فقد تركت الأم ساقها «لغاندى» يهوى عليها بفمه الصغير ويمتص السم الذى فيها ثم يبصقه على الأرض. فعل ذلك بسرعة وبدون تردد. كان يحب أمه كثيرًا ولا يريد أن يفقدها فى حادثة مثل هذه. وفى النهاية أصبح الجرحان خاليين تقريبًا. ولم يعد «غاندى» يحس إلا بطعم الدم المالح. واستردت الأم أنفاسها قليلا ولكن وجهها ظل أصفر اللون شاحبًا مغطى بالعرق البارد وقالت فى همس:

– يمكنك الآن أن تذهب لطلب المساعدة.

وجرى غاندى نحو الرجال. وأخبرهم بما حدث لأمه. كانوا يعرفونها

فقد كانت هي السيدة الطيبة التي تعطف على كل فقراء القرية. أسرعوا خلفه فوجدوا الأم وقد فقدت وعيها وهتف غاندى فى فزع. ولكن أحد الفلاحين وضع أذنه على صدرها ثم قال له:

- لا تخف إنها بخير.. مازالت حية ولكنها فى حاجة لبعض العناية الطبية والمنبهات.

وقال فلاح آخر:

- يوجد مستشفى إنجليزى كبير فى المدينة المجاورة.. هيا ننقلها إليه.

وأحضر أحد الرجال عربة يجرها حصانان. وصنعوا للأم فراشًا من القش. ثم حملوها ووضعوها على الفراش برفق وجلس «غاندى» بجانبها وأمسك يدها فوجدها باردة ومبللة بالعرق فأخذ يدعو فى أعماقه من أجل نجاتها. وأن تصل العربة إلى المستشفى قبل فوات الأوان.

كانت العربة تجرى بسرعة. والرجل يلهب ظهور الجياد بالسوط ولكن طرقات القرى الهندية كانت كلها وعرة.. ترابية وغير مرصوفة. لم يكن الإنجليز الذين كانوا يحتلون الهند منذ زمن بعيد يهتمون إلا برصف الطرق التي تخدم أغراضهم الحربية. أما بقية البلاد فقد تركوها تعيش كما عاشت دائمًا منذ آلاف السنين.

وأفاقت الأم للحظة وجيزة.. نظرت إلى «غاندى».. وهتفت فى صوت ضعيف:

- أين أنا..؟.

قال «غاندى» وقد فرح لأن الوعى قد عاد إليها:

- إننا فى طريقنا إلى المستشفى الإنجليزى الكبير يا أمى.

ولكن الأم أغمضت عينيها فى ضعف وهي تقول:
- الإنجليز.. عليهم اللعنة.. إنهم أشد شرًا من الثعابين.

وأغمضت عينيها من جديد. كانت العربة تمر بالعديد من القرى الفقيرة.. يطل عليهم الأطفال العرايا.. يتأملون العربة وهم يزيحون الذباب من على وجوههم. وأحس «غاندى» فى مثل هذا الموقف العصيب كأنه يرى بلاده الهند للمرة الأولى.

وأخيرًا وصلوا إلى المدينة. وحاولت العربة أن تجد لنفسها مكانًا للمرور وسط زحام الناس والبائعين. ووضع «غاندى» أذنه على قلب أمه. كان يدق فى ضعف. ولكنه يدق على أى حال.

وتوقفت العربة أمام المستشفى. كانت كبيرة مبنية بالطوب الأحمر ويرفرف عليها العلم البريطانى عاليًا وفى مقدمتها تمثال كبير للأسد الذى يرمز للأمبراطورية البريطانية التى لا تغرب الشمس عنها أبدًا.

حمل الرجال جسد الأم. وتدلى ذراعها فأسرع «غاندى» يحمله. وساروا جميعًا إلى بوابة المستشفى ولكن ما إن دخلوا من الباب الذى يؤدى إلى داخل المستشفى حتى فوجئوا بأحد الحراس الإنجليز يرفع بندقيته فى مواجهتهم وهو يهتف:
- إلى أين أنتم ذاهبون؟.

وتوسل إليه أحد الرجال قائلا:
- يا سيدى الجندى معنا امرأة مصابة بلدغة ثعبان ونريد أن نجرى لها بعض الإسعافات.. إنها سيدة مسكينة يا سيدى.

وأنزل الحارس البندقية فى حيرة وهو يشاهد وجه المرأة الأصفر الشاحب.. وقال فى تردد:

- ولكن.. الأوامر..

وفجأة ارتفع صوت رجل وهو يقول بقوة:

- من هؤلاء الناس.. من أنتم؟.

كان رجلا إنجليزيًا ضخمًا يرتدى معطفًا أبيض ويقف أمامهم.. وقال الحارس:

- إنهم بعض الهنود يا سيدى المدير.. معهم امرأة مصابة بلدغة الثعبان..

ولكن المدير أشاح بيده بلا مبالاة وهو يقول:

- لا يهم.. دعهم يبتعدون.. هذه المستشفى مخصصة فقط للبريطانيين وممنوع دخولها على كل الهنود.

وأسرع «غاندى» ووقف أمام المدير وهو يقول فى توسل:

- أتوسل إليك يا سيدى.. إنها فى حالة خطرة ويجب أن ننقذ حياتها.

ولكن المدير نظر إليه فى احتقار ثم أشار للحارس وهو يقول:

- الأوامر هى الأوامر. اطردهم خارجًا. لا يهم هندى ميت.. فهناك الملايين منهم أحياء.. هيا.. اطردهم بسرعة.. لا مناقشة.

ورفع الحارس البندقية ووجهها إلى صدورهم. وجاء حراس آخرون لا يدرى أحد من أين ظهروا. كلهم كانوا يحملون البنادق.. صرخوا فى الرجال أن ينصرفوا وإلا قتلوهم. ولم يكن هناك مفر من أن يحملوا الأم ويعودوا للعربة مرة أخرى. وبكى «غاندى» فى حرقة. كانت عينا الأم مفتوحتين. لقد رأت وسمعت كل شىء.. وقال «غاندى» وهو يضغط على يديها:

- لا تقلقى يا أمى.. سوف نذهب إلى مستشفى أخرى.

ولكن الأم ردت فى حزم: كلا. لن تذهبوا إلى أى مكان. الإنجليز يزيدون من مرضى. هيا.. فلنعد إلى بلدتنا وسوف أريك كيف تعالجنى.

وكانت الأم مصممة. لذلك فقد استدارت العربة وعادت إلى البلدة. وعندما أصبحوا بجوار الحقول مرة أخرى أمرتهم الأم بالتوقف. وطلبت من «غاندى» أن ينزل ويحضر لها قبضة من طين الأرض. وعاد «غاندى» يحمل قبضة رطبة فقالت له الأم:

– ضعها هنا.. فوق أثر اللدغ.. لن يداوينا إلا أرض الهند المقدسة.

ووضع «غاندى» قبضة الطين على ساق الأم. وواصلت العربة سيرها. وأحس «غاندى» أن أمه قد بدأت تشفى بالفعل. فقد توقف العرق وبدأ وجهها يعود إلى اللون الطبيعى.. وقالت الأم:

– تذكر دائمًا يا بنى. أرضنا طيبة. ولكن وجود الاحتلال يدنسها.

لم ينس «غاندى» هذا اليوم. لقد شفيت أمه. ولكنه رأى من فظائع الاحتلال أكثر.. وأكثر.. ولكنه كان مؤمنًا بأرض الهند وبشعبها لذلك فقد قادهم فى أول مقاومة سلمية من أجل طرد الاحتلال من الهند. كان يقابل العنف بالمحبة. والحرب بالسلام. وينشر تعاليمه فى كل بلاد الهند الواسعة حتى توحدوا خلفه وطهروا أرض الهند عندما طردوا منها آخر جندى إنجليزى. ولم يبق هناك ثعبان.

فهرست

صفحة

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤٣٢٩
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3320 – X	ISBN

١ / ٩٠ / ١٥٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

وراء كل عظيم فكرة تكون محور حياته تبدأ بذورها الأولى من أيام الطفولة ولا تكف بعد ذلك عن التشكل والنضج فى كل مرحلة من مراحل الحياة . وفى هذا الكتاب نستعرض طفولة نماذج مختلفة من عظماء التاريخ الإنسانى ونبش معًا عن هذه البذور التى شكلت كل الأفكار العظيمة حتى ندرك أن الإرادة الإنسانية قادرة على أن تحوّل كل الأحلام الصغيرة إلى واقع حى.